

## الجدورُ الشرقية للرومانسية الغربية

أ.م.د. فارس عزيز حمودي \*

تأريخ القبول: ٢٦/١١/٢٠١٩

تأريخ التقديم: ٢٤/١٠/٢٠١٩

### المستخلص:

تتلخّص فكرةُ البحثِ بالكشفِ عن الجذور الشرقية للرومانسية الغربية؛ عبر تحليل سياقات تاريخية مختلفة؛ بدءاً من تأثر الحضارة اليونانية بالحضارات الشرقية القديمة؛ عبر منافذ مختلفة أهمها مصر وقرطاجة، وصعوداً إلى العصور اللاحقة. والحديث عن العصور القديمة يمثل مثابةً تاريخية تبيّن أنّ الحضارة اليونانية - التي يحيل إليها الأوربيون مجمل تراثهم الحضاري - لم تكن تشمل العالم الأوربي المتعارف عليه في عصرنا الحالي. وان تلك الحضارة امتداد لتداخل حضارات كثيرة؛ أهمها الحضارات الشرقية في مصر والعراق وفارس. وأن إرث اليونان القديم يحمل في طياته بذورَ الرومانسية في الفنون والآداب الشرقية القديمة المختلفة.

أمّا بخصوص العصور اللاحقة فيجري الكشفُ عن تأثر الحضارة الأوربية بالشرق الأوسطي على الخصوص، منذ العصر الاندلسي فصاعداً. ومن ذلك الشرق جرى اقتباس الأسس الأولية للنزعة الرومانسية الأوربية. وهذا لا يعني إقصاء الأصالة الأوربية والإقلال منها؛ لكنّ ومن جانب آخر لا يقَرّ البحثُ بفرادتها عن الآخر الشرقي.

يحتوي البحثُ على تعريف بالرومانسية، بوصفها نزعةً فكريةً؛ أكثر من كونها نزعة أدبية، لذلك كان لها أثر خطير في نشوء تغيرات واسعة في العالم. وقد أسهمت الروح الشرقية بهذا النشاط إسهاماً واضحاً، وساعدت الإبداع العالمي على تجاوز الانغماس في صرامة النزعة العقلية وإحياء عنصر الجمال والحب في الثقافة العالمية.

والرومانسية الحديثة - في الحقيقة - نشاط استشرافي؛ حاول الخروج من جفاف الروح الأوربية إلى مستوى شاعرية الشرق. حدث هذا من خلال تأثر الرواد الأوائل للأدب

\* قسم اللغة العربية/ كلية الآداب/ جامعة الموصل .

الأوربي بالأداب الشرقية؛ ولاسيما الأدب العربي؛ خصوصاً من خلال كتاب ألف ليلة وليلة وأشعار الأندلسيين.

وفي البحث أمثلة نصوية منتخبة من آداب أوربية مختلفة تأثرت تأثيراً بيناً بالشرق؛ فضلاً عن شهادات النقاد والأدباء والرحالة بهذا التأثير الكبير بالأداب الشرقية. وهذا التداخل مع الشرق يبيّن بوضوح التفاعل الحضاري بين الأمم، على العكس مما تدّعيه النظرة الفوقية. تلك النظرة التي ترسخ حالة الانكماش والقطيعة بين الأمم؛ سواء على مستوى فكري، أو على مستوى فني وإبداعي.

### المقدمة:

قبل الدخول في موضوع البحث نلزم الإشارة إلى ملاحظاتٍ ضرورية، الأولى: أنّ نتائج البحث أو حتى فروضاته قد لا تلاقي قبولا من لدن الكثير من الغربيين؛ لاسيما فيما يتعلق بجدور الرومانسية في العصور القديمة. ويعزز هذا الرفض كون الكثير من الغربيين يخضعون في تصوراتهم لسلطة المركزية الغربية. هذه المركزية التي انتقدها وبشدة الكثير من الكتاب الغربيين أنفسهم؛ وبينوا أنها تنطوي على تعسفٍ كبير؛ فقدموا بحوثاً ونتائج جديدة تغير الكثير من النسق المتوارث بخصوص انتماءات أو التداخل الحضاري والمعرفي للأمم السالفة.

ومع ذلك فلكل أحدٍ أن يقدم الأدلة على ما يراه من أفكار وما يتخذه من مواقف؛ والحكم بالتالي يعود إلى المعطى العلمي العابر للذاتية والأعمام.

الملاحظة الثانية: أنّ البحث يتناول الرومانسية بوصفها مذهباً فكرياً؛ لا يقتصر على الأدب وفن الرسم أو الموسيقى فحسب. أمّا الخصائص المدرسية لهذه النزعة فمعايير أتت بعد؛ بسبب المقارنة بينها وبين مذاهب أخرى؛ وأغلبها مقارنات إجرائية؛ تخصّ المنحى النقدي لهذه النزعة.

أما الملاحظة الثالثة فمفادها: أنّ البحث غير معنيّ بتفصيل أسس المذهب؛ من حيث مناحيه النقدية المُختلف فيها؛ بل هو دراسة ذات نزوع تاريخاني<sup>(\*)</sup>؛ يفسّر البعد التطوري لهذه المذهب؛ والذي كان له أثر كبير في عموم الفكر البشري وثقافته المختلفة. وتتبع جذور الرومانسية بحاجة إلى جهدٍ مقارني مُضن؛ قد يستغرق بحثاً كثيرة، وحيثاً زمنياً طويلاً، نظراً للسعة في مفردات الرومانسية حتى قبل التأسيس لمصطلحها بأزمان موعلة في القدم.

والبحث هنا لا يتكلم عن نشوء الرومانسية الغربية أيام تناميها ونشئها فحسب؛ بل يتحدث عن الجذور المؤسسة والممهدة للكثير من العناصر التي كونتها. فالمعروف أن كل المذاهب الكبرى في الأدب وعموم الفكر كانت تأسست منذ زمن أبعد بكثير عن زمن ظهورها. والأفكار والمذاهب على الحقيقة تتكون من مجموعة عوامل داخلية ومؤثرات

---

\* سيتكرر مفهوم التاريخانية. ولكي يتجنب القارئ الخلط الحاصل في معناها يحيط البحث – باختصار – بدلالة هذا المصطلح. فالتاريخانية بحسب راييموند وليامز Raymond Williams ذات معانٍ ثلاث؛ يوردها حسب التسلسل الأكثر قبولا لدى الدارسين:

الأول: معنى محايد يعبر عن المنهج الدراسي المعتمد على حقائق الماضي وتأثير سوابق الأحداث.  
الثاني: منهج يعتمد على ظروف سياقات تاريخية متقلبة؛ يتم عن طريقها تفسير أحداث مُحددة.  
الثالث: معنى يرفض التنبؤ على أساس الضرورة التاريخية؛ أي لا دخل لمجريات الماضي في وقائع الحاضر.

أما الناقد التاريخي بول هاملتون في كتابه "التأريخ أو التاريخانية" Historicism or Historism فيرى "أنها حركة نقدية تشدد على أهمية السياق التاريخي لتأويل النصوص. إنها معنية بوضع أية عبارة فلسفية / تاريخية / جمالية ضمن سياقها التاريخي، من أجل سبر المدى الذي ينعكس فيه تطور المفهوم. وأكثر التيارات في أواخر القرن العشرين مثل ما بعد البنوية وما بعد الحداثة اعتنت بفكرة: أنّ الفهم يتواجد بفهم تفاصيل التاريخ وحيثياته.

أنظر: Keywords. A vocabulary of culture and society. Raymond

williams.p.147. New York, NY . Oxford University Press, 2015.

Historicism. Paul Hamilton. & published in the Taylor. Francis e-Library, 2005

Introduction. p.3

تاريخانية بعيدة أسهمت في نشوئها أو التي ستعتمد عليها لاحقا في ترسيخ تعاليمها ومناهجها.

وهذا البحث ليس درسا نقديا يعمل على معارضة النصوص وتقييمها كما أنه ليس درساً فيلولوجياً لها، فهكذا درسٌ له مجالاته وم تخصصه. ومع ذلك فالبحثُ يتناول عيناتٍ من أدلة ومعطيات تثبت امتداد الرومانسية ومصادرها الأولى.

وعلى الرغم من هذا لا يدّعي البحثُ أن كل مصادر الرومانسية القديمة أو التي في العصر الحديث تعود إلى الشرق، فهذا الحكم إقصاءٌ؛ لا يندرج تحت موضوعية العلم. لكن البحثُ يطمح إلى توجيه النظر إلى ما أسهم به الشرق في تشكيل جذور الرومانسية الغربية. وهذا ما حمله على إعطاء نماذج مختصرة عن هذا الإسهام مع إيراد شهاداتٍ مؤرخين وأدباء ونقاد في هذا المجال.

### في نشوء مصطلح الرومانسية

الرومانسية (حركة أدبية وفنية وفكرية؛ نشأت في أوروبا في نهاية القرن الثامن عشر، وتميّزت بتأكيداتها على العاطفة والفردية، فضلا عن تمجيدها الماضي والطبيعة. ومثلت رد فعل على الثورة الصناعية، والقواعد الاجتماعية والسياسية الأرستقراطية لعصر التنوير)<sup>(١)</sup>.

ويُرجع البعض النشوء الحديث للرومانسية إلى " الحركة الأدبية التي بدأت بنشر القصائد الغنائية التي وضعها كلٌّ من ووردزورث وكوليردج في عام ١٧٩٨؛ بوصفها ردّاً فعلٍ على عقلانية القرن الثامن عشر.

وبخصوص موقف الرومانسية من العقل يرى البعض أننا ( لا بد أن نفهم أن معركة الرومانسية لم تكن ضد العقل؛ بل في سبيل عقل أرقى وأرحب؛ يتوافق مع عليه الكائن البشري من تعقيد)<sup>(٢)</sup>.

1 Encyclopedia Britannica Online. "Romanticism". Retrieved 30 January 2008, on 13 October 2005.Oxford. London. 2005.

٢ موسوعة كامبريدج للنقد الأدبي. الرومانسية. تحرير مارشال براون. ت. ابراهيم فتحي . المجلد الخامس ص ٧٥ - ٧٦. المركز القومي للترجمة. ط١ القاهرة. ٢٠١٦.

وتؤكد الرومانسية على أنّ العالم يشبه نباتًا حيًّا؛ ينمو ويتطور ويرتفع. وينكر الرومانسيون أنّ تكون العقلانية الطريق الوحيد للحقيقة، ويذهبون إلى أنّ الحدس يمكن أنّ يفودهم إلى فهم أنفسهم وعالمهم، ويجب تقييم الاهتمامات الفردية والعواطف والخيال<sup>(١)</sup>. ولاشك في أنّ الإرباك الذي حدث في الفكر الأوربي نتيجة التغيرات التي أحدثتها حركات التنوير شكّل ردودَ فعلٍ أسهمت في إنتاج الرومانسية؛ أو على الأصح في استجلابها من الشرق وتطويرها بما يلائم العقل الغربي وذائقته. "وتجسّدت الرومانسية<sup>(٢)</sup> الأوربية بشكل أقوى في الفنون البصرية، والموسيقى والأدب، وكان لها تأثيرٌ كبيرٌ على التاريخ، والعلوم الاجتماعية والطبيعية"<sup>(٣)</sup>.

إنّ مجموعة الكلمات التي تحتوي على جذر "Romance" في اللغات الأوروبية لها تاريخ معقد، وفي منتصف القرن الثامن عشر كان للرومانسية في اللغة الإنكليزية والفرنسية المعنى ذاته؛ وتعني الاحتفاء بالطبيعية. والواقع لا أحد يستطيع تجريد العصور

1 Literary Criticism: An Introduction to Theory and Practice, 5th Edition.

Charles E. Bressler. London. pp 325 – 326. 2011

٢ ولمزيد من الاضاءات نذكر أنّ كلمة رومانس اشتقت من كلمة ronanze لفظة فرنسية قديمة تعني اللغات الناشئة عن اللاتينية، واستخدمت كلمة ronance في العصور الوسطى لتصف قصص الفروسية المكتوبة باللغات المحلية، وتلك القصص كانت مكتوبة شعرا. ويمكن أنّ نعزو استخدام كلمة «رومانس» إلى المفهوم الذي يصف التجربة العاطفية في العصور الوسطى، ويمكن أيضا أنّ نرجع استخدامنا لمفهومها - كتجربة فكرية - إلى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. إلا أنّ البعض اعتبر بزوغ الروح الرومانسية في إنجلترا في القرن الثامن عشر إحياء للأدب الإليزابيثي واتجاهاته القوطية. وبدأ استخدام صفة رومانسي ينتشر في القرن الثامن عشر، حيث امتدت الكلمة لتدل على ما هو فتان ومثير للخيال. واستخدمت منذ عصر النهضة لتدل على حرية التخيل. واستخدم الفيلسوف والناقد الألماني فريدريك شليجل (١٨٢٩ - ١٧٧٢) عام ١٧٩٨ المصطلح (Romantisch) ليبدل على أشكال حديثة من التعبير الفني، ربطها بما أسماه «الشعر العالمي التقدمي».

أنظر: الرومانسية دونكان هيث، جودي بورهام - - ترجمة: عصام حجازي - مراجعة وإشراف وتقديم:

إمام عبد الفتاح إمام - المجلس الأعلى للثقافة - القاهرة - الطبعة الأولى ٢٠٠٢ - ص ٩-١٣.

History as Romantic Art, David Levin,,: Bancroft, Prescott, and Parkman.. ٣

p.67. 1967.

السالفة من بذور الرومانسية؛ وليس هناك مذهب في الأدب والفن تخلّص من أطرها؛ لأنّ الإنسان يبقى ذا صلة بالمقومات التي تنطلق منها الرومانسية؛ ولاسيما العلاقة بالجمال والحب والطبيعة والمرأة.

ومن هنا كتب رائد الرومانسية في المانيا **فريدريك شليغل** (١٧٧٢-١٨٩٢) في حوارهِ حول الشعر عام ١٨٠٠: "أجد في الرومانسية الحداثة الأقدم، أجد لها لدى شكسبير، وسرفانتس، وفي الشعر الإيطالي، وفي عصر الفروسية والحب والخرافة"<sup>(١)</sup>. وتكشف كتابات شليغل بوضوح أكبر عن الرغبة في تتبع كل شيء بالرجوع إلى الهند<sup>(٢)</sup>.

وفي العصر الأليزابيثي طغت الأفكار الشرقية على الدراما الإنكليزية، وتفتت أيضا المسحة الشرقية بأعرافها وأذواقها وطبيعة اللغة الملونة بالأسلوب الشرقي<sup>(٣)</sup>. لكن الكثير من الموضوعات التي تخص مفردات التاريخ الحضاري متأثرة بفكرة المركزية؛ التي يحاول الذهن الغربي جعلها المرجع لأغلب رواه وعقائده؛ لذلك من العسير على الذهن الغربي إرجاع الأصول الفكرية والأدبية إلى جذور غير أوروبية؛ أو خارج نطاق الأصول اليونانية.

ومنذ أن وضع إدوارد سعيد كتابه الاستشراق وجّه العلماء عنايتهم إلى التناقض الكامن في تصورات الغرب تجاه الشرق<sup>(٤)</sup>. وجزيا على أطروحة سعيد ركز بابا - في كتابه: **السؤال الآخر: الصورة النمطية المميّزة للخطاب الاستعماري** - على مناقشة التباين الازدواجي في تصوّر الغرب للشرق؛ بوصفه سمة أساسية من سمات الاستشراق؛ والذي يراه - وطبقا للتحليل النفسي - شكلا من أشكال النزوع الجنوسي؛ الذي تمتزج فيه

١ Romanticism. Ferber, Michael. A Very Short Introduction. Pp 6-7. New York: University. 2010.

٢ التتوير الآتي من الشرق. اللقاء بين الفكر الآسيوي والفكر الغربي. جي. جي. كلارك. ص ١٠٨. ترجمة شوقي جلال. ط١. عالم المعرفة. الكويت. ٢٠٠٧

٣ The Oriental in Elizabethan Drama. Louis 1991. Wana. Cornell University. p. 33.

٤ للتوسع انظر كتاب: الاستشراق. ادوارد سعيد. ...

الجادبية والتنافر؛ وهذه سمة مميزة للاستشراق؛ بوصفه أحدَ نمطيات الاستعمار الموزعة بين الحبِّ والكراهية<sup>(١)</sup>.

وهذه الصورة لا ننتظر منها أن تكون حقيقيةً عن الشرق؛ بقدر ما هي صورةٌ خيالية؛ ممتزجة بشيءٍ من الواقعية؛ وتعبّر عن حاجةٍ عاطفيةٍ للأوروبيين آنذاك؛ في فترةٍ من تاريخهم المضطرب. لكن هذه الحاجة أتت مختلطةً بكمٍّ كبيرٍ من التزوير؛ فالتصورُ الخاطيءُ يفضي إلى نتائجٍ سلبيةٍ على الدوام. وإنَّ المعرفة بتطور الحضارات من أكثر الأمور صعوبةً وخطورةً.

وتأتي هذه الصعوبةُ بسبب الانقمار إلى الأدلة الحاسمة؛ بخصوص حركة انتقال عناصر الحضارات. لكن الصعوبة الأكثر تتمثلُ في انحياز المُشاهد، والذي تسببه دوافع مختلفة، ومع ذلك يستمر العلماء بتقديم دراساتهم التي يقفُ القارئُ أمام طوفانها حائراً ومنبهاً أحياناً أخرى.

والاثنوغرافيون يعرفون: أنَّ الملامحَ المشتركة بين شعوب العالم أكثر من الاختلافات التي بينهم، لكنهم يدرسون ويشكلون مكثفَ مظاهر الاختلاف. وحتى لو بدا للكثير أنَّ الفيزياء والرياضيات أعقدُ العلوم، فإنَّ العلومَ التي تدرس الإنسان وحضارته ليست في الواقع أقلَّ تعقيداً<sup>(٢)</sup> وجدارةً بالعناية. لذلك فدراسةٌ مثل هكذا تداخلُ بين الحضارات يحتاج إلى منهج يتجرّد عن التصنيفات الإثنية؛ ويتعامل مع المُنجز الحضاري بوصفه منجزاً إنسانياً؛ عابراًً للتصنيف العرقي؛ حينها ستخف وطأة التحيزات التي تضرُّ بالقيمة العملية.

وقبل التوسّع في هذا نودُ طرحَ ملاحظةٍ مفادها: أنَّ المعنيَّ بالشرق هنا الشرق الأدنى والذي تدور حوله أغلبُ الإشكالات في ثنائية الشرق \ الغرب، وهذا لا يعني نزاع الانتماء

١ The Other Question: Stereotype, Discrimination and the Discourse of Colonialism ch. 3. pp 79. London: Routledge, 1994.

٢ الإثنوس والتاريخ. برومليه وبودولني. ت. غانم معصراني، ص. ٨. دار التقدم، دمشق. ١٩٨٨.

الشرقي لبقية الأمم الشرقية؛ لكن أغلب مشكلات الغرب الحضارية تتعلق بالشرق الأدنى، وهذا ما يميل إليه رودى پارت<sup>(\*)</sup> في معرض تحديد مفهوم الشرق. يقول پارت: "كلمة شرق تعني مَشرق الشمس، ... والظاهر أنَّ اسم الشرق تعرَّض لتغيّر في معناه؛ فالشرق بالقياس إلينا نحن الألمان، يعنى العالم السُّلافي، وهذه المنطقة يختص بها علماء بحوث شرق أوروبا. أمّا الشرقُ الذي يختص به الاستشراق فـجغرافياً مكانه الناحية الجنوبية الشرقية بالقياس إلينا .... ومع أنَّ الشرقَ الحالي هو شرق البحر المتوسط أنَّ ذلك؛ فهو لدى العالم الغربي يميل موقعه إلى الجنوب. ولمّا انتقل مركز الأحداث السياسية من البحر المتوسط إلى الشمال؛ بقي مصطلح الشرق يشير إلى الدول الواقعة شرق البحر المتوسط"<sup>(١)</sup>.

وملخصُ الأمرِ أنَّ ما يُسمى الآن الشرقُ الأوسط هو جنوب أوروبا الغربية، وهو شرقُ اليونان فحسب؛ أو لنقل شرق البحر المتوسط. فنحن شرقيون بالنسبة إلى اليونان؛ وجنوبيون بالنسبة لأوروبا الغربية. وپارت يفسر السعة التي حصلت للمدلول اليوناني القديم لمفهوم الشرق؛ بفعل الامتداد السياسي والجغرافي للحضارة الإسلامية؛ ثم يتوسّع ليحدّد البلدانَ المعنية بالشرق حالياً. وتفسيره هذا قريبٌ مما ذهب إليه سيدني فيشر Sydney Fisher ويعني به (الشرق الأدنى)؛ والذي أُستعيضَ عنه لاحقاً بتعبير الشرق الأوسط؛ ويشمل تركيا واليونان والعالم العربي<sup>(٢)</sup>.

\* رودى پارت من المستشرقين الألمان الأكثر اتزاناً، ترجم القرآن إلى الألمانية. توفي سنة ١٩٨٣؛ حصل على الدكتوراه سنة ١٩٢٤. شغل كرسي علوم الإسلام والساميات في جامعة بون. إنتاجه الأساسي ترجمة القرآن بحسب الترتيب العثماني إلى الألمانية، والتعليق على الترجمة في مجلد ثان. وبهذا صار المجلد أداةً بيلوغرافية نافعة. وإلى جانب هذا كتب رسائل عن القرآن، منها رسالة: محمد والقرآن وهي عرضٌ قصد به غير المسلمين لتفهيمهم حقيقة رسالة النبي ص. وله رسالة بعنوان الإسلام والتراث الثقافي اليوناني. أنظر: موسوعة المستشرقين. عبد الرحمن بدوي. ص ٦٢. دار العلم للملايين. بيروت. ط٣. ١٩٩٣.

١ الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية. رودى پارت. ص ١٧-١٨.

The Middle East, A History 2nd. Sydney Nettleton

٢

Fisher(New York 1968) pp. 7.



### البذور القديمة لعناصر الرومانسية :

للحديث عن نشوء الرومانسية لابدّ من الرجوع إلى جذرها القديم؛ كي لا يلتبس الحال ونقع تحت طائلة الترويج الغربي من أنّ امتداداته الثقافية تعود إلى اليونان؛ ففي حقيقة الأمر أنّ التداخل بين اليونان والعالم الشرقي أوسع بكثيرٍ من الامتداد مع العالم الأوربي قديماً. واليونانيون لم يعدوا أنفسهم منتمين إلى أوربا الغربية " فقد قارنَ أرسطو بين سكان الأراضي الباردة في أوربا المتفجرين حيوية، والمفتقرين للذكاء والمهارة، وليسوا بقادرين على حكم الآخرين بسكان الأراضي الأكثر دفئاً في آسيا، الذين كانوا أذكيا ولطيفي المعشر، لكنهم يفتقرون إلى الحيوية" (١).

والأرجحُ في كلام أرسطو أنّ الحيوية تعني القدرةَ الجسمانية، ولم يصوّر الإغريقَ على أنهم أورييون، بل شعبٌ متميز؛ حظيَ بأفضل الصفات. لكنّ هذا كلّهُ لا يعني عدم الإقرار بأخذ أوربا الكثير من عناصر حضارتها من اليونان؛ بعد زوال الأخيرة بقرون كثيرة، بحكم الصلات الجغرافية والدينية، وبفعل الرغبة في الانتماء إلى حضارتها السامية.

إن "المؤسسات الأكاديمية في الغرب - ومنذ سبعينيات القرن العشرين - قبلت النقد الموجّه إلى الاستعمار الكلاسيكي، وحاولت أن تتأى بنفسها عن أسلافها. ونجح خطابها في تفسير أسباب الحنين الرومانسي والاستعماري المستسخ عن الشرق في الفنون والأدب" (٢).

ويرى تيم وايتمرش Tim Whitmarsh أنّ جذور الرومانسية في أوربا " تعود إلى أصولٍ يونانية، و"الرومانسية اليونانية بدورها استمدت أسسها الأولى من الشرق، فالإغريق الأوائل - وبسبب الغزوات المتتالية - اختلطوا بالشعوب الشرقية؛ وهم في أطوارهم الأولى في بنائهم الثقافي؛ لكنهم حسّنوا الفن الذي حصلوا عليه... وقاموا بإصلاح الفنون التي

١ أثنأ السودان. ماترن برنال. تحرير محمود إبراهيم السعدني. ج١. ص١٠٢. ط١. المجلس الأعلى للثقافة القاهرة. ٢٠٠٤.

٢ Orientalism Past and Present, An Introduction to a Postcolonial Critique, Tobias Hübinette. The Stockholm Journal of East Asian Studies. no 13, p. 73-74

اقتبسوها من الشرق، وخلصوها من الثوب الفظ الذي ظهرت فيه بين الشرقيين. وقاموا بتعديلها بشكل أكثر انتظاماً، وحولوها إلى أنماط ملحمية، وفي هيئة شكّلت بذور الرومانسية منذ وقت مبكر.

أشار النقاد إلى النسق الذي وضعه بيير هويت<sup>(\*)</sup> Pierre Huet 1630- 1721 عن الأصول الشرقية للفنون اليونانية القديمة. "ورجح أنّ الرومانسية نشأت بفعل اتصالٍ خصبٍ بين اليونان والشرق الأدنى. وفي الدراسة التي قام بها اروين رود Erwin Rohde - 1876 إثباتاً بأن النسخة المبكرة للسرد والخيال اليونانيين امتداداً لفنونٍ عالم شرق البحر الأبيض المتوسط وما وراءه"<sup>(1)</sup>.

وهذه الآراء تأخذ بها شريطة الانتباه إلى ملاحظة مفادها: أنّ الحديث هنا غير معني بالنزعة المدرسية في تصنيف المذاهب الأدبية؛ أمّا النمط الشكلي أو حتى المنهجي للمدارس الأدبية الأوربية فتقسيمات لاحقة، فالكلاسيكية مثلاً أخذت معايير الفن اليوناني والروماني من حيث البناء؛ إلا أنّ تلك الفنون في هاتين الحضارتين كانت تحمل عناصر الرومانسية من حيث الأخيلة والعواطف وسبل التعبير. أمّا فيما يخصّ المعايير التي وضعها أرسطو والتي لها علاقة بالأجناس والمذاهب الأدبية فتُعد لاحقة على ذلك التأثير المبكر للإغريق بعالم الشرق.

إنّ " اللقاءات الأوروبية مع المثقفين الآسيويين تكتفت في عهد الرأسمالية التجارية، وتشير بعض الدراسات إلى أنّ القصور لحق نموذج التفكير الاستشراقي ما قبل عصر التنوير؛ لم يتمكن من قراءة الوقائع التطورية التي حصلت في أوربا بفعل تأثيرها بالشرق، لكن ظروف أوروبا بدأت تتغير بحلول نهاية حياة هويت Pierre Huet في أوائل القرن الثامن، حين لم تتمتع الدول الأوروبية بهيمنة سياسية، ولم تكن متفوقة بأدائها على

\* أسقف ومؤرخ فرنسي (1630-1721)، له إسهامات في مجال التاريخ الحضاري. وخصوصاً كتابه عن أصل ( الرواية) الرومانسية وفنون الخيال.

The Romance Between Greece and The East. Edited by Tim ١

Whitmarsh. Cambridge press. P. 325

الإمبراطورية العثمانية في شرق البحر المتوسط، ومع ذلك، فإن هويت يقدر كيف تترايط المجالات المتشابهة للمعلومات والسفر والتجارة والقوة والاستعمار مع بعضها البعض<sup>(١)</sup>. إن تأثير وادي الرافدين في الأدب والفنون لا يقل عن تأثيره في علوم الفلك والرياضيات وغيرهما؛ فالأدب الملحمي الذي ظهر عند السومريين والبابليين في عدد من الملاحم الشعرية، كملحمة گلگامش واضح في لإلياذة المنسوبة إلى هوميروس. " ومجال الأساطير في العصور القديمة هو المجال الذي حاول من خلاله الإنسان تفسير ظواهر الحياة والطبيعة المحيطة به، مثل ظواهر الخلق والموت والخصوبة والإنجاب. وهنا نجدُ قدرًا غير قليل من الأساطير اليونانية تكاد تتطابق مع الأساطير التي سبقتها في وادي الرافدين مثل أسطورة أنانا وديموزى (عشتار وتموز) البابلية؛ في مقابل أسطورة أفرودي وأودنيس اليونانية التي وصلت إليهم عن طريق الفينيقين<sup>(٢)</sup>، وهي جميعها أدبياتٌ تكتظ بمواقف الإنسان من فكرتي الحب والطبيعة تصل أحيانا إلى حدَّ العبادة والتماهي فيها.

"وإذا نحينا جانبا قضية ما حدث طوال ألف سنة قبل أن يكتبَ هيرودوت كتابه "التحقيقات التاريخية" Historiae، فإن تعبيره يوحى إلى حد كبير بأن الاعتقاد الذي كان سائدا في القرن الخامس ق.م. هو أن بلادَ الإغريق قد (استوطنها) المصريون في بداية عصر الأبطال. وإن آراء هيرودوتوس حول المستوطنات المصرية والفينيقية في بلاد الإغريق، كانت آراء مألوفة، ليس في الوقت الذي عاش فيه (ذلك المؤرخ) فحسب، ولكن في كل مراحل العصور القديمة"<sup>(٣)</sup>.

ويتجه علماء الكلاسيكيات إلى توقيت دخول الأبجدية الفينيقية إلى بلاد الإغريق بالقرن التاسع، أو القسم الأخير من القرن العاشر ق.م<sup>(٤)</sup>. وتقتضي الأبجدية الفينيقية في بلاد

١ م.ن. ٣٢٦.

٢ أنظر: Murray. University of Chicago Press, The Literature of Ancient Greece, 1956.

٣ اثنا السوداء. م.ن. ج. ١. ص ١٧٥.

٤ م.ن. ص. ١٩٠.

الإغريق واستيطانهم فيها يمتنع معه تصوّرُ عدم انتقال أفكارهم وتقاليدهم وفنونهم إلى بلاد اليونان.

ويذكر أوستلر لـ" قد نشرت المستوطنات الفينيقية وعلى نطاق واسع إحساساً بماهية المجتمع المثقف في الشرق الأدنى ... فقد كان الفينيقيون ناشرين لتقافة وادي الرافدين على نطاق عالمي. وكان الشيء المادي الملموس نشرهم الكتابة بنظامهم الأبجدي بين اليونانيين والإيبيريين؛ وربما بين الرومان، وهكذا يحق لهم الادعاء بأنهم قدموا لأوروبا تعليمها الأساسي".

إن ملحمة أنساب الآلهة التي نظمها هسيودوس قد "تظمت على أساس من نماذج تنتمي إلى الشرق الأدنى من نوع لم يتم تطويره إلا بعد ١١٠٠ ق.م. وتنتمي إلى لون (أدبي) يمكن أن نتبع آثاره في جميع أرجاء الشرق الأوسط بدءاً من الألف الثالثة ق.م.، وليس هناك من سبب يدعونا للشك في أنّ صيغة ما من هذا اللون قد وجدت في بلاد الإغريق. ومع ذلك فإن الصيغة التي قدمها هسيودوس في ملحمة في إطار هذا اللون الأدبي، تحتوي على خصائص لا يحسن تفسيرها إلا من خلال الروايات التي كانت سائدة نهاية الألف الأولى ق.م.<sup>(١)</sup>

يقول والمؤرخ اليوناني هيرودوت: " إنّ جميع الشخصيات المقدسة في اليونان تكاد أن تكون مأخوذة من مصر، وبحوثي الخاصة دلّنتني على أنّ هناك شخصيات مقدسة أخذتها اليونان من البلاد المتبريرة، لكنني أرى أكثر الشخصيات مأخوذة من مصر خاصة"<sup>(٢)</sup>. ومن أهم الأساطير التي أثّرت في نشوء الفن اليوناني أسطورة ديونيسيوس<sup>(٣)</sup> إله الحب

١ إمبراطوريات الكلمة. تاريخ للغات في العالم. نيفولاس أوستلر. ص ٨١-٨١. ت محمد توفيق البجيرمي. دار الكتاب العربي. بيروت. ٢٠١١.

٢ على هامش التاريخ المصري القديم، عبد القادر باشا مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٧٠، ج ١، ص ١٣١.

في الأساطير ديونيسيوس ابن الإله زيوس من أم بشرية تدعى سيملي، عشقها زيوس وأنجب منه طفلاً. قررت الانتقام فأغرت غريمته سيملي بأن تطلب غيرتها ولشدة وسمعت هيرا زوجته بهذا فطار صوابها، أن يتجلى أمامها وهي البشرية الفانية بهيئته الإلهية. وفعل زيوس ما أرادت سيملي، فلم يحتمل من زيوس جسدها ذلك؛ ففارقت الحياة، وجنبتها لما يكتمل بعد، فانتزع زيوس من بطنها وأخفاه في فخذ. ولما أتى

والخمر؛ في مقابل القوة الأبولونية رمز العقل والروح، هي ذاتها أسطورةً باخوس لدى الرومان. ويرجح العلماء أن أصل ديونيسوس غير يوناني. وأنه من تراقيا التي في جنوب الأناضول أو من كريت إلى اليونان<sup>(١)</sup>. وأسطورته كانت السبب في نشوء الموسيقى والشعر الغنائي؛ لذلك يعزو إليها نيتشيه ولادة عصر المأساة الإغريقية<sup>(٢)</sup>.

لكن ما هي المنافذ التي تمتت من خلالها هجرة الميثولوجيا والفنون الشرقية إلى بلاد اليونان؛ فضلا عن منفذ مصر الفرعونية المبكر؟. الواقع كانت صقلية حلقة الوصل بين الشرق وأوربا، ويظهر هذا في العصور الإسلامية بصور مباشرة؛ لكن دور صقلية في تأثيرها على اليونان أقدم من هذا بكثير؛ حيث انتقل إليها الفينيقيون الذي أسسوا قرطاج سنة ٨١٤ ق.م. قبل تأسيس الألعاب الأولمبية الأولى ٧٧٨ ق.م. بحوالي ٨٨ سنة<sup>(٣)</sup>.

وحتى الألعاب الأولمبية دخلت اليونان من طريق الفينيقين الموجودين في أوتيكا<sup>(٤)</sup>، القرية من قرطاج. فالصراع الذي بدأ للاستيلاء على صقلية لم يكن صراعا عسكريا فحسب؛ بل تداخلا حضاريا؛ تم من خلاله عبور الاعتقادات والفنون الشرقية إلى اليونان.

وإذ نُقِرَ بسموِّ حضارة اليونان وما قدمته من جهود ف "من المستحيل تجاهل شهادات اليونانيين القدماء أنفسهم، فقد شهد أفلاطون بفضل الحضارة المصرية القديمة، وأكد على أن اليونانيين أطفال بالقياس إلى تلك الحضارة العظيمة. وهناك روايات تحكي عن اتصال فلاسفة اليونان وعلمائهم ومنهم أفلاطون ذاته بالمصريين القدماء؛ وسفرهم وإقامتهم فيها

---

موعد ميلاده أخفاه عن هيرا الغيورة حتى كبر. ثم بدأ ديونيسوس يجوب البلدان شريدا مطاردا؛ فخوراً أنظر: بخرمه الذي يسميه ماء الربيع؛ وناشراً دعوته كرب للحقول والخصوبة والعشق

*Classic mythology. Myth Summary Chapter 13: Dionysus, Pan, Echo, and Narcissus. Ninetieth edition. Oxford University press. P. 233.*

١ قاموس أساطير العالم. آرثر كوتزل. تسمي الطريحي. ص ١٥٩. دار نينوى. دمشق. ٢٠٠٨.

٢ أنظر: مولد التراجيديا. فريدريك نيتشيه. تشارح حسين عبد. ص ١٠٦. دار الحوار. سوريا. ٢٠٠٨.

٣ التوسع الفينيقي في غربي البحر المتوسط، محمد الصغير، ص ١٠٦. ط ٢، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ١٩٨٢.

٤ تاريخ سوريا الحضاري القديم، حمد داوود. ص ٥٣١. ط ٣، دمشق، دار الصفدي. ٢٠٠٤.

لتلقّي العلم. ويذكر المؤرخ اليوناني ديودور الصقلي في كتابه تاريخ العالم: "إن جميع اليونانيين الذين اشتهروا بعلمهم وحكمتهم زاروا مصر القديمة، كي ينهلوا من علومها. إذن لم تكن نشأة العلم يونانية خالصة؛ ولم يكتشف اليونانيون ميادين العلم من فراغ، بل أنّ الفرصة كانت ممهّدة لهم في بلاد الشرق؛ التي كانت تجمعهم بها صلات تجارية وحربية وثقافية، وكانت أقرب البلاد جغرافياً إليهم"<sup>(١)</sup>. وفي هذا الصدد يقول مؤرّخ العلم والحضارة جوستاف لوبون: " كان الناس منذ سنين قليلة يظنون أنّ اليونانيين هم أصل العلم والحضارة، وأنّ علومهم وآدابهم من مستنبطاتهم، وأنهم غير مدينين بشي لمن سبقهم من الحضارات، ثم جاءت نتائج التنقيبات الأثرية في مصر ووادي الرافدين والهند؛ فتغيرت المفاهيم تغييراً جذرياً، ... وقد نقل الفينيقيون إلى اليونان منتجات الفنون والصناعة المصرية والآشورية، وبقي اليونانيون دهراً طويلاً يقلدونها، وأنّ اليونانيين يدينون بالفضل في ازدهار حضارتهم لمن سبقهم من أمم الشرق"<sup>(٢)</sup>.

ويقسم العلماء الحضارات القديمة إلى قسمين: أصيلة ومكتسبة. والحضارات الأصيلة التي اكتشفت هي حضارة وادي النيل ووادي الرافدين، وحضارة الهند والصين، أما الحضارة واليونانية والرومانية فهي حضارات مكتسبة لأنها بُنيت على أساس الحضارات الأصيلة كلاً أو بعضاً<sup>(٣)</sup>. "وقد تميزت كلُّ حضارة بمميزاتٍ مثل اللغة ونظام الكتابة والفن وأسلوب الحياة. وعلى الرغم من انتقال عناصر الحضارة من مركز إلى آخر؛ فقد اتصلت الحضارة اليونانية بحضارة مصر قبيل الأسرة الأولى ( ٣٢٠٠ ق.م) وأعجبت مصر بفن السومريين وبعض مظاهر حضارتها"<sup>(٤)</sup>.

١ الأصول الشرقية للعلم اليوناني. د. محمد محمود علي. ص ٧. ط ١. عين للدراسات والحوث. القاهرة. ١٩٨٨.

٢ مقدمة الحضارات الأولى. جوستاف لوبون، ص ١٧-١٨. ط ١. دار الرافدين. ت محمد رستم. دار الرافدين. ١٩٩٩.

٣ تاريخ العلوم والتكنولوجيا في العصور القديمة. مصطفى محمود، ص ١١٠. ط ٢. الهيئة المصرية العامة للكتاب. ٢٠٠٨.

٤ A short history of Science, W, T, Sedwick and W, W, Taylor, The Macmillan

Company, New York, 1939 , p. 15-16.

وعليه فهناك فجوة في تتبع تأثير اليونان بالثقافة الشرقية عموماً، ويتغلغل الرومانسية إلى الفنون اليونانية ثم الأوروبية لاحقاً؛ من خلال الإرث اليوناني المكتسب من حضارات الشرق.

وقد لازم الإقصاء الشرق بفعل ضعف التوثيق؛ وضحالة الاستشراق الكلاسيكي، أي الاستشراق الذي كان يصدر من أمة متخلفة ( الأمم الأوروبية بعامة ) قبالة حضارة الشرق، التي كانت تشكل مصدر التفوق والارتقاء الثقافي. ويذكر روبرت بريفولت Robert Briffault في كتابه (بناء الإنسانية The Making Of Humanity): "إن النور الذي أضاء الحضارة مرة أخرى لم تأت جذوته من الثقافة اليونانية والرومانية، أو من آثارها في أوروبا، لم يأت من الشمال بل أتى من القادمين من الجنوب وهم العرب<sup>(١)</sup>.

وأما بخصوص الحضارة الرومانية فهي حضارة مكتسبة؛ وميزتها الكبرى التوسع العسكري والمدني وليس الحضاري؛ مقارنةً بحضارة اليونان. ومع ذلك فتفوقها في مجال القانون والنظم الاجتماعية امتد أثره إلى أوروبا الغربية لاحقاً بحكم الاحتلال الروماني لها؛ لكن تظل الروح اليونانية هي الأصل؛ سوء لدى الرومان؛ أو لدى الغرب الأوربي لاحقاً.

ونظراً إلى أن الرومان أسهموا بنزير يسير في الحوار بشأن ما يمكن أن نسميه النظرة العلمية إلى العالم؛ فهذا يعني " أن الحكمة الموروثة حتى عصر النهضة لم يطرأ عليها تغيير منذ أيام الإغريق، أي قبل نحو ١٥٥٠ سنة من ظهور كوبرنيكوس ...

أما في الأندلس فكانت القضية معكوسة؛ حيث أعادت الأندلس صياغة معادلة تبين مكانة الشرقيين في حركة التاريخ الحضاري. وأدى اختلاط التأثيرات الإسلامية والمسيحية واليهودية في أسبانيا تحت الحكم الإسلامي إلى قيام ثقافة مزدهرة.

كتب بول الفاروس Paul Aivarus زعيم الكنيسة في القرن التاسع الميلادي شاكياً من الجاذبية التي مارستها الثقافة العربية على المسيحيين الأسبان قائلاً: يحب المسيحيون قراءة أشعار العرب وقصصهم؛ ويدرسون أعمال الفقهاء والفلاسفة العرب، لا ليفقدوها بل ليكتبوا بلغة عربية صحيحة ... وفي مقابل كل فرد قادر على أن يكتب خطاباً باللاتينية

The making of humanity. robert briffault. London. ruskin house, 40 museum street w.c.i. pp. 183

هناك ألف ممن يستطيعون التعبير بالعربية، ويكتبون قصائد بهذه اللغة أفضل من العرب أنفسهم<sup>(١)</sup>. وهذا يعني أن منافذ الاقتباس الحضاري والأدبي باتت مُسرعة أمام الأوربيين بشكل واسع.

فالآداب الأوربية في القديمة تأثرت تأثيراً كبيراً بالثقافة اليونانية وبالآداب اليوناني على الخصوص لكن الطابع الذي اكتسبته منها بقي طابعاً يحمل سمات الروح اليونانية والرومانية والتي تتناقض إلى حد كبير مع الثورة الأدبية التي واكبت ظهور الرومانسية الأوربية.

ولمعالجة آلية اكتساب سمات الروح الشرقية والعربية على الخصوص - وهي قضية بلا شك معقدة - يستطرد البحث قليلاً ليُلخّص هذه الآلية من خلال ما كتبه مفيد الشوباشي، إذ قدّم حججاً عقلية تعضد الشواهد والأدلة التي ذكرها الكثير من الباحثين. يقول:

"إن الحب الذي تصوره ملاحم الإغريق ومسرحياتهم هو الحب الجسدي العنيف المخيف الذي تراق في سبيل لذاته الدماء، ... الحب الذي يتحرق إلى القسر والأسر والاعتصاب. أما الحب الإنساني المتبادل الذي يورث المروءة والنبل، ويدفع صاحبه إلى نصره الضعيف ... هذا الحب الشبيه بحب العذريين لم تعرفه أوربا إلا بعد اتصالها بالعرب.

وكانت تصرفات الإغريق في أعمالهم الأدبية تتسم بالخشونة والتباهي بالقوة الجسدية .. وكانت حروبهم مجازر، وفروسيتهم غلظة وقسوة، أمّا الشفقة والرحمة فصفتات تحقّر صاحبها؛ بدلاً من أن ترفع قدره لأنها تدلّ عندهم على الضعف والعجز. ولم تعرف أوربا إلى ما قبيل العصر الحديث، إلا هذا اللون من الأدب. ثم طلعت بشائر إنتاج أدبي أخذ ينبثق خلال القرن الثاني عشر حرصاً على تحري الصدق في تصوير الواقع، وفي تحليل العواطف الإنسانية المهذبة. فانقلب الأدب الأوربي حينذاك من أدب أسطوري إلى أدب إنساني، فلماذا وقع هذا الانقلاب في المكان والزمان الذي وقع فيهما؟ وما هي عوامل وقوعه؟. ولماذا نجزم بأن التغيير الذي طرأ على أدب أوربا يرجع إلى تأثره بالأدب

Western Views of Islam in the Middle Ages. Richard Southern.

١

Harvard University Press. P21



العربي؟ ألم نقل انه كان إغريقي الموضوع؛ لاتيني اللغة، منعزلا عن الجماهير فلما طفق بعض المؤلفين يكتبونه بلغاتهم الوطنية عاد فاتصل بالجماهير، فلماذا لا نقول أن هذا التغيير هو الذي سددت خطاه، وردة طبيعيا إنسانيا؟.

الواقع فإن ذلك التحول كان يحتاج إلى نماذج يسترشد بها ... ولم تتبدل الحال إلا بهبوب نسمات من أدب متجدد ... فقد أمد الأدب العربي أوروبا بنماذج أدبية كانت تحتاج إليها، وكانت السبب في انطلاقه في طريق السمو الفني. وهذا ما سهل على الأدب الأوربي سلوك سبيل التطور، واختصر زمن الانتقال إلى المرحلة الحضارية التي وصل إليها في العصر الحديث.

فإذا قيل أن الأوربيين كانوا سيصلون إلى ما وصلوا إليه من مستوى حضاري سواء أعانهم العرب أو لم لا ... والأعمال الأدبية العربية ما كانت لتصلح لنماذج لأدب أوربي؛ لأن الأدب يعكس نشاط مجتمعه ومشاعره فكيف تصلح أعمال أدبية لأمة نماذج لأدب أمة أخرى؟. والجواب إن مؤلفي الغرب لم يجدوا في الأدب العربي منهلا يغترفون منه المعاني وإنما تعلموا فن التعبير الصادق عن الواقع ... ولم يكن ذلك من خلال الأدب وحده بل من خلال النظم والقيم الحضارية والسياسية والذوقية<sup>(١)</sup> تلك النظم والاعتقادات والأذواق والآداب بعمومها موازية للنزوع الإنساني إلى حد كبير، فضلا عن القواعد الأخلاقية في التعامل مع المرأة والطبيعة ومع عناصر الحب والطبيعة من دون انعكاسات ميثولوجيا ترهقها الأخيلا الأسطورية ذات الطابع الدموي على الغالب.

### بذور الرومانسية الشرقية في العصر الوسيط

وإذا تركنا تلك الشهادات عن الآداب القديمة؛ ونتناول واقع الأحوال في عصور لاحقة فسنحتاج إلى أمثلة عملية تبيّن حجم تأثير الآداب الشرقية في الآداب الغربية، ولما كان ذلك أمراً ذا سعة فليس أمامنا إلا انتخاب عينات من ذلك التأثير؛ نستطيع من خلاله رسم

١ العرب والحضارة الأوربية. محمد مفيد الشوباشي. ص ٢٦ - ٢٩. ط١. الهيئة المصرية العامة للكتاب.

صورة مقارنة للواقع في هذا المجال. ونبدأ أولاً بتتبع سريع لتأثر شعراء التروبادور بفنون الشرق ومن ثم إسهامهم هم في تشكيل البذور الأولى للرومانسية في عموم أوروبا لاحقاً: لم يعرف شعراء أوروبا الشعر الغنائي المَقَّي إلا بداية القرن الثاني عشر للميلاد؛ في جنوب فرنسا، وأول مَنْ نظم هذا الشعر في منطقة بروفنسا Provence شعراء التروبادور Troubadours. ويذكر سي إس لويس " كل واحد منا قد سمع عن أشعار التودد في حب، وكل واحد يعرف أنه ظهرت فجأة في نهاية القرن الحادي عشر في لانغدوك\* . لقد تم وصف خصائص شعر تروبادور بالشكل الغنائي والأناقة التي تتسم بالتطور؛ وغالباً ما تكون غامضة.

وتلك الأشعار كانت من نوع خاص للغاية في مزايا التواضع، وإدانة الحبيب؛ بوصفه مذنباً على الدوام الحب؛ يصور أصدق صور الطاعة لأمنيات الحبيبة، مع الامتناع عن لومها، رغم أنها غير عادلة، ويجري مخاطبتها بوصفها عذراء، وهذا يُعد من خلق المهذبين، حيث تصبح الحبيبة - من وجهة نظر الحبيب - زهرة، أو بذرة. وتلك الأعراف النبيلة التي تميزت باللطيف هي التي تجعله حبيباً مهذباً. وهذا الشعر غالباً ما أُطلق عليه في القرن التاسع عشر الحب العذري<sup>(1)</sup>.

وهذه السمات وحتى التسمية هي ذاتها السمات والتسمية التي تنطبق على أشعار العذريين العرب، والتي لم تكن ضمن سياقات التعبير عن المشاعر تجاه المرأة في أوروبا قبل القرن الحادي عشر.

"والتروبادور شاعرٌ جوالٌ ينظم الأشعار الغنائية، والتسمية مشتقة من الفعل "تروبار trobar بمعنى وجد، أي وجد العبارات الجميلة؛ وأطلق الاسم على كل من يقرض الشعر.

\* لانغدوك (Languedoc) مقاطعة فرنسية سابقة أصبحت الآن ضمن إقليم أوكسيتاني في جنوب فرنسا. كانت عاصمتها تولوز.

The allegory of love. Lewis. A study in medieval tradition. C. S. Lewis. P. 1

2. Oxford. Press. 1958.

ويُعد ظهور الشعر الغنائي في مطلع القرن الثاني عشر الميلادي من نتائج التغيير الذي طرأ على منطقة بروفسا. ويتجلى هذا أيضا في اللغة التي كُتبت بها ذلك الشعر وهي اللغة الأوكسيتانية الرومانسية<sup>(١)</sup> التي استخدمها أهل الجنوب ثورةً على اللغة اللاتينية من جهة، وتعبيرا عن أدب وطني مستقل من جهة أخرى.

والشعر الأوكسيتاني نظم بلغة أوك؛ وهي لغة جنوب فرنسا دون شمالها. ونشأ في أوائل القرن الثاني عشر للميلاد؛ غير بعيد عن مناطق الأندلس، وهو شعر غزلي في حب المرأة والدفاع عنها. وأغوى هذا الشعر خلال العصور الوسطى طوائف من شعراء غرب أوروبا، فظهر شعراء شمال فرنسا الذين نظموا شعرهم بلغة الشمال، وكذلك شعراء إنكلترا، وأسبانيا، وإيطاليا، وألمانيا وغيرهم؛ من الشعراء الجوالين الأوربيين<sup>(٢)</sup>.

ظهر شعرُ التروبادور في أوائل القرن الثاني عشر الميلاد وعلاقته بالحضارة العربية الأندلسية تبدو واضحة. وكان جمارا بار بيوري Barbieri في القرن السادس عشر الميلاد، أول من أشار إلى تأثير الأدب الأندلسي في الأدب الأوكسيتاني. ودافع عن هذه الفرضية، في نهاية القرن الثامن عشر للميلاد الأسباني خوان أندريس. وبار بيوري، لكن إلى يومنا هذا لم يتفق الباحثون على المصادر التي استقى منها الشعر الأوكسيتاني خصائصه، بل أحتفظ كل منهم بافتراضاته وبدوافع قومية أو دينية جانب الكثير منها أبسط قواعد الموضوعية<sup>(٣)</sup>.

لذلك حاول قسم من الدارسين إرجاع أصل الشعر الغنائي الأوكسيتاني إلى مصادر لاتينية، معتمدا في ذلك على قصائد القديس فورتوناتوس Fortunat؛ الشاعر الروماني

١ الأوكسيتانية لغة رومانسية في جنوب فرنسا وشمال غربي إيطاليا وشمال شرقي إسبانيا وهي لفظة منحدره من اللاتينية: occitana أي اللغة القسطانية. أنظر:

The Provençal speech of the Waldensian colonists of Valdeese, North Carolina.

Valdeese: Historic Valdeese Foundation.

٢ مصادر شعر التريادرو الغنائي. د. محمد عباسة. ص. ٢٤. مجلة حوليات التراث. العدد ١٤ /

٢٠١٤.

٣ م.ن.

الذي عاش في القرن السادس للميلاد. بينما الشعر البروفنسي في القرن الثاني عشر للميلاد يختلف جذريا عن مقاطع " فورتوناتوس الشعرية، وهي ليست سوى نثر اكليروسي<sup>(١)</sup>. والواقع فإن شعرَ التروبادور لا يمثل تمثلا حرفيا أشعار الحب والفروسية العربية؛ ولا حتى الأزجال الأندلسية؛ وذلك بحكم التغيرات الذوقية التي أسبغها عليه المتلقون الأوروبيون.

وفي المقابل فإن النزعة الرومانسية التي اجتاحت أوروبا لاحقا لم تكن نقلا حرفيا؛ لا للشعر العربي ولا للشعر الغنائي الرومانسي الذي كان لدى شعراء التروبادور؛ لكن موضوعاته الشعرية والقيم التي تعامل معها ونزعة الجمال والحب والميل إلى الطبيعة والمرأة؛ بوصفها كائنا جميلا هي من العناصر التي اعتمدها الرومانسية، واستمدت عناصرها من كلا النتاجين السالف ذكرهما؛ الأندلسي بعامة وشعر التروبادور. فضلا عن الجانب العذري والفروسي في تلك الأشعار.

وبحلول نهاية القرن الحادي عشر للميلاد بدأ المجتمع الأوكسيتاني يتجه نحو ثقافة اجتماعية وأدبية جديدة، والتي هي غريبة تماما عن أوروبا المسيحية. هذا التحول الجديد كان صدىً لحضارة مجاورة، هي الحضارة الأندلسية. فالمداحون (Joglers) والمهرجون (Minstrels)، والحجاج كانوا من الفاعلين الأساسيين الذين أسهموا في مرور هذا الأدب؛ من الجنوب إلى الشمال، وكان الشعراء الجوالون سباقين إلى احتضانه<sup>(٢)</sup>.

استطاع الشعراء البروفنسيون "إدخال جميع موضوعات الشعر الأندلسي تقريبا إلى مجتمعهم. وطرقت الغزل البلاطي المجامل والعفيف، أبدعوا في بوصف الحب، وأزهار الربيع، مدحوا ورثوا، كما خصوا مختلف عناصر الطبيعة الحية والجامدة. أما بالنسبة للأشكال الشعرية التي وردت عندهم، فليس هناك دليل على أنها وجدت في أوروبا قبل

١ م.ن.

٢ مصادر شعر التروبادور الغنائي. م.ن. ص ٢١.

عصرهم. هذه الصيغ نقلوها في الواقع، من بلاد الأندلس<sup>(١)</sup>. وهذا يعضد ما ذهب إليه (سي إس لويس) كما مر بنا سالفًا.

و" أول مَن نظم الشعر الغنائي الغزلي (التروبادور) غيوم التاسع، كونت بواتييه (١٠٧١ - ١١٢٧م)، وبدأ نشاطه الشعري في السنوات التي تلت عودته من المشرق؛ عام ١١٠٠، على رأس حملة صليبية، ولكن تم تكسير جيشه من لدن خصومه الصليبيين. ولقد لاقى هذا الشعر لاحقًا دعماً من الفونسو الحكيم؛ ملك قشتالة (١٢٥٢-١٢٨٤) الذي - وعلى الرغم من مناهضته للمسلمين - كان منفتحاً على حضارة الأندلس؛ محباً لأدبها<sup>(٢)</sup>.

ومن الأدلة الأخرى التي عضدت القول بأن تلك القصائد الغنائية كانت تستند إلى الزجل العربي أن الفونسو قام بإلحاق صور تظهر الآلات الموسيقية وحاملها؛ سواء كانوا من العرب أو الأسبان أو الاتيين معاً<sup>(٣)</sup>، وكان عدد تلك الصور يبلغ أربعين صورة أو منمنمة؛ تظهر عازفين اثنين ينظر أحدهما إلى الآخر. إذ كان بلاط الفونسو العالم يعج بالعلماء المسلمين.

لذلك فإن أصحاب النظرية اللاتينية بالغوا حين بحثوا لهذا الشعر عن أصول أوفيدية (نسبة إلى الشاعر الروماني أوفيد ٤٣م - ١٨م ق.م؛ في كتابه فن الحب، لأن أشعار أوفيد نصائح قدمها لكلا الجنسين بغرض الإغواء، ولم يراع فيها الاحتشام؛ في حين أن تمجيد المرأة الذي جاء به شعراء التروبادور في شعرهم لم يعرفه الأوفيديون من قبلهم<sup>(٤)</sup>)؛ بينما هذا التمجيد للمرأة ولمعاني الحب هو من ميزات الغزل الشرقي والاندلسي على الخصوص. "وإذا كان الزجل قد ظهر قبل شعر أول شاعر لاتيني معروف بقرنين من

١ الموشحات والأزجال الأندلسية وأثرها في شعر التروبادور، محمد عباسة. ص ٤٤. دار أم الكتاب، ط١، مستغانم ٢٠١٢.

٢ ألفونسو العاشر والإسلام ناديا ظافر شعبان، المجلة العربية السعودية، عدد مزدوج، ص. ١١٠. ٤. ٥ مايو ١٩٧٩،

٣ أثر الأندلس على أوروبا في مجال الموسيقى والإيقاع. الجراري. ص ٨٩. ط١. مكتبة المعارف. الرباط. ١٩٨٢.

٤ مصادر شعر التروبادور الغنائي. م.ن. ص ٢٥.

الزمان فلا شك أن الأغنية اللاتينية الحديثة مشتقة من الأغنية العربية الأندلسية لا العكس" (١).

ويذكر الناقد الفرنسي بيرديه في كتاب «القصة في سبعة قرون»: «نشر العرب في الأندلس خلال القرن العاشر الميلادي حضارة جديدة، وابتدعوا شعراً غنائياً إنسانياً حمله شعراء التروبادور إلى الشمال، وتدل المراجع التاريخية على أن القصور الأندلسية بعد أن احتلها الأسبان، كانت تزخر بشعراء العرب الذين وقعوا في الأسر، ومن السخف أن يتجنب مؤرخو الأدب الفرنسي هذه الوقائع الثابتة بالأدلة المسجلة» (٢).

وحتى بعد سقوط الأندلس وتعرض المسلمين فيها إلى الاضطهاد فإن تأثيرهم الثقافي في أوروبا صار أوسع وأعمق؛ بسبب انتشارهم في أصقاع أوروبا؛ بعد الاضطهاد الأسباني. وتذكر المستشرق زيجرد هونكه "أن رومانسية الموريسك بقيت تعم مجالس السرور في أوروبا؛ فأول مرة في تاريخ العلاقات العربية / الألمانية صارت قصور أمراء أسبانيا والبرتغال الجسر الذي انتقلت عن طريقه هذه المؤثرات ومعها وآداب الفروسية وفنونها، إلى فرنسا ثم إلى ألمانيا.

وقد أدى التراث الأندلسي الذي بقي في أشعار وموشحات العرب الذين بقوا في أسبانيا بعد سقوط الأندلس إلى ظهور نوع جديد من الأدب هو " الرواية الحديثة " ولذلك فليس من العجيب أن يؤدي اتحاد أسبانيا وألمانيا تحت راية كارل الخامس إلى زيادة تقبل الألمان للحضارة الأسبانية التي كانت تتمتع بقوة جذب خاصة بصفتها العربية الواضحة وتفردها الشرقي" (٣).

"إن المدة بين القرنين العاشر والثاني عشر شهدت ازدواجية النظرة إلى الشرق؛ فمن جهة تركت الحملات الصليبية سجلاً حافلاً بالكراهية تجاه الشرق؛ لا تظهر فيه إلا بعض

١ الإسلام في أسبانيا. لطفي عبد البديع. ص ١٢٠. مكتبة النهضة المصرية. القاهرة. ط١. ١٩٥٨.

٢ الأدب الأندلسي بين التأثير والتأثير. محمد رجب البيومي. ص ١٢٧. إدارة النشر والثقافة الجامعية. الرياض. ط١. ١٩٨٠.

٣ الإبل على بلاط قيصر. زغريد هونكه. ت حسام الشيمي. ص ٢١-٢٢. مكتبة العبيكان. الرياض.

محاولات فردية للتعامل مع الأعداء. ومن جهة أخرى الشعور بالحاجة إلى تلمس مسارب التجديد عبر فكر المسلمين والعودة إلى الروح اليونانية من خلال ما كتبه ابن رشد وسواه. وإذا كان الخطاب الاستشراقي الحديث تطور ضمن حالةٍ من الديناميكية الغربية؛ فإن الاستشراق القروسطي كان قلقاً وحائراً تجاه الآخر؛ غير أنه كان يعي عظمة الثقافة الشرقية وكم الإبداع الذي فيها. وهكذا أخذت أوروبا تفهم ذاتها عبر النصوص المنتقاة من الثقافة الشرقية. ومن خلال إعادة التعريف بنفسها أعادت صياغة ذاتها أمام الثقافة العظيمة؛ لكن بشكل من أشكال الفوقية<sup>(١)</sup>؛ هذه الفوقية تتمثل بنكران المرجع الشرقي لأغلب الفنون والأفكار التي اقتبستها منها.

و(العقل يأبى أن يذهب الأدب الأندلسي من صفحة التاريخ الأوربي بغير أثرٍ على الأفكار والموضوعات والدواعي النفسية والأساليب اللغوية التي تستمد منها الآداب... وقد اقترنت بموضوعاته بأسماء طائفة من شعراء أوروبا خلال القرن الرابع عشر وما بعده، منهم بوكاشيو ودانتي وبترارك الإيطاليين وشوسر الإنجليزي، وسرفانتيس الأسباني)<sup>(٢)</sup>. الذين كانوا امتداداً للرعيل الذي تعاطى الأدب والشعر في القرون الوسطى ونهل من نتاجات الأندلسيين، وخصوصاً في مجالات شعر الفروسية والحب والطبيعة.

### التحولات الفكرية والسياسية والتذبذب بين الرومانسية والعقلانية

بعد خروج أوروبا من العصر المظلمة عانت تحولات واسعة ولأزمان طويلة كان فيها الصراع على أشده بين تيارات دينية وفلسفية وسياسية مختلفة؛ فعصر الأنوار نفسه جعل الصراع مُحْتدماً بين العقل والمثالية؛ ثم بين الكلاسيكية والرومانسية.

انتشرت الرومانسية أول الأمر في ألمانيا المفككة، والتي كانت بحاجة إلى نموذج التاريخ والبطولة والوطنية، فاعتمدت الإعلاء من شأن فروسية العصور الوسطى؛ لإثارة حمية الشعب؛ ليلتف حول النموذج الأمل؛ كما هو الحال في عهد أوتو أيام الإمبراطورية الجرمانية. " لكن الشعب الألماني ظل ممزقاً، وخاض حروباً راح ضحيتها ثلث السكان،

١ الاستشراق والقرون الوسطى. جون م. غانم. ص ٣٣-٣٤. هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة. ط ١.

٢٠١٢.

٢ أثر العرب في الحضارة الأوروبية. عباس محمود العقاد. ص: ٥٥-٥٦. دار نهضة مصر. القاهرة. د.

ت.

وجرى خلال ذلك انقسامات ومذابح عرقية وطائفية بين ألمانيا والنمسا والسويد ومن ثمّ فرنسا. فكبا الفكر الألماني وانحسر إلى الداخل نحو الرومانسية؛ مستهضاً ماضيه؛ مع أنه هو الذي أسس للعقلانية وعمل على تحطيم بُنى الاستبداد<sup>(١)</sup> لكن كيف جرّث العودَةَ إلى الروح الرومانسية في أوروبا فيما بعد عصر التنوير؛ وفي أعقاب تحطيم المُثل الكلاسيكية؟.

يُعد فهم انتشار الرومانسية في أوروبا قضيةً معقدة؛ ما لم يُصار إلى فهم التغيرات التي حدثت في نُظم التفكير الأوربية ذاتها، لذلك نحتاج أن نتتبع - وعلى عجاله - فهم تلك التغيرات.

" جاء الرومانسيّة الأوربية على شكل موجاتٍ متتالية، وهذا يوحي بقوة زخمها وتعقيد طبيعتها. فهي لم تكن حركةً واحدة بل حركة متعددة، لكل منها ميزتها، لكنها تشترك في "صدق الضمير"، حيث أنّ المواقف الفردية والخيالية حلّت محل النزعة العقلانية القديمة. فالإنكليز كانوا متفوّقين في الشعر الغنائي، والفرنسيين ركزوا على الدراما، في حين كانت الأشواق المتعالية أنسب للرومانسية الألمانية ذات النزعة الراديكالية الميتافيزيقية"<sup>(٢)</sup>.

رأى فلاسفةُ عصرِ التنوير بأن التجربة وحدها قادرةٌ على تحديد ما هو خير وما هو شر، فالنافع هو الخير، والضارّ هو شر. وفي مجال القيم تصوروا أنّ ضمير الإنسان لا معقبَ لحكمه، وهو الذي يحدّد ويفرز ما هو شرّ وما هو خير.

كان هذا التوجه في بؤاده كفاحاً ضدّ هيمنة الميتافيزيقيا، والفلسفات المثالية المعطّلة للحياة؛ والمرسّخة لمصالح الإقطاع؛ والنخب؛ الكهنوتية وغير الكهنوتية؛ فدخل الاستقراء ثم التجربة - تحت مظلة الرياضيات - مجال العلم؛ لكن هذا الهوس بالتجربة والاستقراء يسري على الماديات؛ ولا يمكن أن يحتوي القيم والأخلاق في نطاقه.

ولمّا كانت الأخلاق لا ترى الخيرَ فيما هو كائن؛ بل فيما يجبُ أن يكون، فكان لا بد من وجودٍ معيارٍ أرقى؛ ألا وهو الواجب الذي دعا إليه كائنٌ. ومن هنا رأى مفكرو عصر

١ نيتشيه مكافحا ضد عصره. ص. ٢٥. ت حسن صقر. دار الحصاد. ١٩٩٨.

٢ Romanticism in Historical Perspective Lilian R. Furst Comparative Literature

Studies, Vol. 5, No. 2 (Jun., 1968), pp. 136.



التنوير: "أنَّ العقل هو المرجع، وهو الذي يجب أن يرتبط بالدين ويفسِّره، واعتبروا "التفكيرَ النظري لا يكفي في مجال الدين؛ ولا بد من أن تكون الأخلاق المفسَّرة له مطابقةً للعقل، وكلَّ ما يطابق العقل من الاعتقادات فعليه مدار العناية"<sup>(١)</sup>. وبمعزل عن الانحراف الذي يمكن أن يحصلَ بفعل شطط العقل فإن هذه النزعة طرحت فكرة عدم الخضوع ( للنظام الساري) بما في ذلك النصوص التاريخية القيم الدينية والأخلاقية.

ومن هنا امتاز عصرُ التنوير بإهمال الماضي ومثله وتقاليده، وتشبَّثَ بالتطلُّع نحو المستقبل؛ لذلك ثار أصحابُه على القومية والعرقية وتطلَّعوا نحو الإنسانية. لكن مثَّلم الجديدة لم يكن لها القدرةُ على وضع مناهج مستقبلية كافية؛ فاشتطوا في تفاؤلهم؛ دون تحقيق سلامة ذهنية واجتماعية كافية. ونرى أنَّ من أسباب فشلها عدم تمكُّن النُخب من احتواء امتدادها؛ فعملية شطب التواريخ ونفي المحددات الاقتصادية الضابطة تعني مزيداً من الفوضى؛ لذلك جاءت (مثَّلم فيها إفراط التفاؤل، والبعد عن مطابقة الواقع)<sup>(٢)</sup>.

واستمرت خيبة الأمل في الوضعانية إلى أن أتت الرومانسية في القرن الثامن عشر؛ لتحاول تحطيم ذاك الذي طالبت به حركة التنوير الأوربي، والعودة إلى الماضي؛ لأن الماضي - كما تدَّعي - هو العطاء والجمال والحب؛ بخلاف الجفاف مع العقل التنويري. والواقع فأن التحول إلى النزعة الرومانسية إنَّ هو إلا مُحاولةٌ لإيجاد مخرجٍ من أزمة متفاقمة في فعلت على البحث عن سبل الانخلاع من الكلاسيكية وعن سطوة البرود العقلي المتمثل بالحركة العقلانية الباردة التي من شأنها مصادرة الإبداع الروحي والفني أو الحد منه.

وحين انتشرت الرومانسية في ألمانيا وجدت من الكنيسة قبولا ومن الإقطاع دعماً، وقالت: بان الله يتجلى في كل شيء وخصوصاً الطبيعة؛ في حين كانت حركة التنوير لا تفسر الدين إلا في نطاق الأخلاق العملية. وعندها انحسرت حركة التنوير نسبياً؛ لولا ولادةٌ أخرى حصلت لاحقاً، وتلك الولادة كانت تطرفاً آخر مضاداً لشطط الرومانسية

١ نقد العقل الخالص. إيمانويل كنت. ترجمة غانم هنا. ص ٩٨. مركز دراسات الوحدة العربية. ط ١

بيروت ٢٠٠٨.

٢ نيتشيه. عبد الرحمن بدوي. ص ١٣٤. وكالة المطبوعات. الكويت ط ١. ١٩٧٥.

ذاتها، حيث انبثقت الوضعية<sup>(١)</sup>؛ التي تعنى بالواقع الخاضع للتجربة؛ ونبذ الأخيلة والميتافيزيقا. ولما كانت الوضعية بنت حركة التنوير؛ فان نجاحها تزامن مع انبثاق الكشوف العلمية في مجال المادة.

إن مبادئ الوضعية كانت موجودة من قبل؛ لكنها لم تستطع مقاومة التيار المثالي أو الميتافيزيقي؛ لأنها لم تحقق مكاسب مادية تدعم رؤاها في الدفاع عنها. لكن الطفرة التي أحدثتها الخبرة في مجال المادة أعطى للوضعية زخم كبير، فالبعد النفعي الذي تحصل للوضعية هو ما جعلها تجد لها مكانا في المجتمعات.

إذن هو صراع محتد بين الوضعية وبين الرومانسية، وما تركته الرومانسية من إرث ظل ساريا لعقود لاحقة. وقدم الأدب الرومانسي الأوربي نتاجات أثرت على مجمل النسق الحضاري والأخلاق في عموم أوروبا.

### التأثيرات الشرقية في الرومانسية الأوروبية في العصر الحديث:

كانت مدام دي ستال في فرنسا أكبر داعية للحركة الرومانتيكية، وهي أول من سماها بهذا الاسم، متأثرة بفلاسفة الألمان ونقادهم، وقد أضفت على دعوتها طابعا عاطفيا غذته بمعرفتها الواسعة من الآداب المختلفة. وكان نقدها ذا طابع علمي، يتجه إلى التفسير والتعليل. فأخذت تدرس الأدب في نواحيه الفردية والاجتماعية<sup>(٢)</sup> معا.

١ الوضعية Positivism : فلسفة وضع أصولها الفيلسوف الفرنسي اوكيست كونت 1798 - 1857. وتقر بعجز العقل عن إدراك العلل الأولى. ويرى أن العقل كان يعيش حالات من الأوهام التي لا صلة لها بالواقع. ويتخبط من الحالة اللاهوتية، ثم الحالة الميتافيزيقية، لكن الأمر لا يستمر على ذلك؛ بل العقل ينتقل من هذه الأوهام إلى الحالة الثالثة وهي الحالة " الوضعية. حيث يتخلص من أوهام اللاهوت والميتافيزيقيا، ويدرك الأشياء طبقاً ل ( وضعها الذي هي عليه). فهو يدرك أنه من المستحيل الحصول على حقائق مطلقة؛ فيقصر همه على الاهتمام بواقع الأشياء واستكشاف الظواهر من خلال واقعها المادي القائم على التجربة.

أنظر: موسوعة السياسة، عبد الوهاب الكيالي. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط ٣، ١٩٩٠، الجزء الخامس ص ٢٧٣. ومع ذلك فما تزال الوضعية تتعرض إلى ضربات متتالية من لدن المثالية وحتى النزعات الاجتماعية والثقافية الراضية لتشيبيء الإنسان.

٢ الأدب المقارن. محمد غنيمي هلال. ص ٤٢. ط ٨. دار نهضة مصر. ٢٠٠٨.

من المرجح أن ترجمة الفرنسيين لألف ليلة منذ وقت مبكر هو الذي سرّع في انتشار التأثيرات الشرقية على الذائقة الفرنسية. ولا نطلق هذا الحكم بشكل عام؛ ونخرج التأثيرات الأخرى التي أتت بفعل جهود الفرنسيين أنفسهم في الخروج على النمطية الكلاسيكية. لكن نعطي نموذجاً يوصّف أثر مشاركة ألف ليلة وليلة في حصول ذلك التغيير.

" لم تكن قصص ألف ليلة وليلة نصاً بعينه في الأدب العربي - كما يظن القاريء الغربي - فهذه القصص حكايات شعبية استمر تناقلها بالرواية الشفهية؛ عن طريق الحكواتية؛ الذين كانوا يزيدون عليها، ويزخرفونها بنوادر أشعارٍ تتم عن أدواقهم الشخصية، ولهذا أصبحت متغيرةً بشكل واضح وذات صيغٍ تعكس اختلاف الأمكنة التي رويت فيها.

ولمّا كانت هذه القصص انبثقت من الأجواء الشعبية التي كانت سائدة في بلاد الهند وفارس والعراق والشام ومصر فإنها عكست طبيعة الناس الذين كانت تُروى لهم باللغة الدارجة؛ كى تستسيغها أسماعهم. لهذا كله لم يكن بالإمكان عدّها من الأدب المصقول"<sup>(١)</sup>. هذا فضلاً عمّا فيها من أخيلة وأفكارٍ وعادات لا يمكن أن تنطبق تماماً على المجتمعات الإسلامية آنذاك، أو على الأقل لا يمكن أن تشمل جميع الأقطار بالجملة.

إنّ الكيفية التي انتقلت بها تلك القصص تبقى غير مؤكدة "ويمكن القول إنّ من حملها إلى أوروبا نفر من مسيحيي ويهود الديار الإسلامية، ومن الصليبيين في حملاتهم، والتجار والرحالة والمبعوثين، وبذلك أصبحت تلك القصص واحدةً من سلع الشرق المتداولة حول العالم.

"وعندما انتهت تلك القصص إلى الفرنسي أنطوان غالان Antoine Galland قرّر ترجمتها بالكامل، وجعل منها نصاً بقي في التداول ما يربو على القرن (١٧٠٤ - ١٨٣٨). وغالان هذا كان مبعوث الدبلوماسية الفرنسية في القسطنطينية. وتعكس المذكرات التي سجّلها انبهاره بالمخطوطات الشرقية. ولقد تأثر برحالة أوروبيين سبقوه إلى الشرق. وقابل جان شاردان<sup>(٢)</sup> 1643 - 1713 م، وهو رحالة فرنسي كتب

١ أساطير أوروبا عن الشرق. رنا قباني. ص ٤٧. ط ١. دار طلاس. دمشق. ١٩٩٣.

٢ موسوعة المسافر. عبد الرحمن بدوي. ص ٨٨. دار العلم للملايين. بيروت. ط ٣. ١٩٩٣.

عن فارس وتركيا والهند. ومع أنّ شاردان كان رحّالة مجدّ إلا أنه لم يستطع أن يكون كاملَ النزاهة. فهو لم يتمكن من تناسي عالم الحريم، الذي كانت أوروبا مولعةً به أشدّ الولع. ووجد في هذا المحور دافعَ الإثارة والقبول لدى القراء العطشى لمثل هكذا انفعالات وأخيلة<sup>(١)</sup>.

إنّ الصور التي اشتقّها غالان من ألف ليلة وليلة هي التي شهرته بعملٍ بهر الأوروبين؛ على الرغم من كونه أدنى إنتاجه قيمةً، وأبعده تمثيلاً للأدب. ولقد سخر من الطريقة التي كتب بها قصص ألف ليلة وليلة، وذكر أنه كان يتسلى بكتابتها ليروح عن نفسه من عناء يوم الدراسة الأكاديمية. وعندما نالت القصص نجاحاً كان من الطبيعي أن يزهو بها؛ إلا أنه أحس يجرح أصاب كبرياء العالم في داخله. ومع ذلك فلم يكن ليستخفّ بهذا الإقبال الشعبي، وقد اعترف لصديقه **غوير** بأنه يتطلع إلى مخاطبة القارئ العادي، وإلى إسعاد الناس لا إلى تعليمهم<sup>(٢)</sup>.

وادعاء إسعاد الناس لا يعني غالان من أن تكون بغيته تلك على حساب الخراب الذي يلحق الحقيقة؛ جزاء ابتسار الشرق كله في قصص يجري انتخاب المفتضح منها؛ لتسلية الجمهور كما ادّعى هو. ومع ذلك فتلك القصص شكلت سحراً جذب عناية الرومانسيين والأوروبيين بوصفه معوّضاً عن جفاف الروح الأوربية؛ من جزاء سطوة الوضعانية تجاه الأدب وعموماً الفكر.

" فالشرق حسبما نقله الأدب المستورد أصبح نوعاً من التسلية التي تغيّر من جو العقلانية المتمتت. ويلبّي توقّ القرن الثامن عشر للعودة إلى البساطة التي دعا إليها روسو Rousseau؛ حين نادي بالعودة إلى الطبيعة. لذلك نرى شخصية ( روبنسون كروزو ) التي ابتكرها دانيال ديفو Defoe أعلى مستوى من جميع الشخصيات البطولية الأخرى، وقصة السفينة المحطمة والجزيرة الخالية في روايته مقبسة عن قصة

١ أساطير أوروبا عن الشرق. م.ن. ٤٩.

٢ م.ن. ٥٣.

السندباد<sup>(١)</sup>. هذا إذا تركنا الجمع بين الرومانسية الفلسفية وبين فحوى القصة التي فيها شبه كبير بقصة حي بن يقضان. لذلك قُوبلت ألف ليلة وليلة بحماسةٍ شديدة في عصر طغى فيه التملُّلُ من الصرامة العقلانية وهي في بواكير اندفاعها، فتولدت الحاجة إلى الترويح عن النفس عبر خيالٍ يتجاوز الصرامة الطاغية، وكان الشرق هو المكان الطبيعي لتلبية تلك الحاجة. ومن هنا بدأت العودة الثانية إلى الشرق السحري .. الشرق الرومانسي المتمثل في قصصه وأشعارهن وأخباره.

ويرى ناجي عويجات أن هناك " عاملان يميزان الصورة الأدبية الشرقية الصحيحة عن الصورة الخاطئة. أولهما أن الخصائص الشرقية الصحيحة إذا ما وجدت أضفت اللون الشرقي على النصوص الأدبية؛ لكن إذا استخدمت في أدبٍ مشوّه فبهذه الزخرفة ليس إلا"<sup>(٢)</sup>.

والآن نتحول إلى إعطاء نماذج تدلّل على كيفية اشتغال الرومانسية الإنكليزية على العنصر الشرقي الذي مثل لديها بعداً أحياناً بالغ الوضوح. والمرجح أن موقف بريطانية من الشرق الرومانسي يمتاز بأنه موقف شاعري أكثر مما هو موقف فكري؛ كما هو الحاصل لدى الألمان؛ فالألمان كان موقفهم من الشرق متأثراً بفلسفة التاريخ على الخصوص وجذرية الأفكار والمشاعر ذات الطابع الحدسي.

أما في بريطانيا فالشعراء وحتى الرسامون المستشرقون أخذوا الشرق أخذاً شاعرياً؛ لذلك تأثروا مباشرة بمصادر الأدب الشرقي لاسيما ألف ليلة وليلة؛ غير ما اكتشفه وحقّقه ونشره المستشرقون من كتب ودواوين عربية، وهي كلها تأثيرات لا تخلو من أن تكون امتدادات للتأثر القديم بالشرق منذ أيام الأندلس، والعصور اللاحقة.

ومنذ العصر الفيكتوري "حاولت إنكلترا الصناعية النقلة من التقاليد الصارمة، والهروب إلى عالم خيالي مليء بالغموض والأحلام، كردّ فعل على التكنولوجيا المادية المسيطرة،

١ Paradise on Earth: Some Thoughts on European Images of Non-European Man, Henri Baudet, (New Haven, 1965) pp. 38-41.

٢ تطور صورة الشرق في الأدب الإنكليزي. ناجي عويجات. ص ١٢. ت تالا صباغ. المنظمة العربية للترجمة. 2008.

آنذاك. وهكذا كانت أشعار الجاهليين ومعلقاتهم وألف ليلة وليلة منبع إلهامٍ للجيل الجديد، من الشعراء والأدباء الرومنسيين، كتايلر وكولبريدج ووالتر سكوت وثوماس كارليل. وكان بايرون من أوائل الذين تأثروا بـ «ألف ليلة وليلة»، في كتابه «الحكايات الشرقية»، إذ رأي الشرق أرض مغامرات محيرة، وعواطف جياشة، وقسوة غاشمة. إنها أرض فانتازيا، يسكنها السحرة والمخلوقات المتعددة<sup>(١)</sup>.

"ومع هذا التحول في نظرة الأوروبيين إلى الشرق عموماً، والعرب خصوصاً، تولدت بدايات الاتجاه الرومانسي في الاستشراق، وظهر معها ذلك الميل المفعم بكل ما هو غريب، وهو اتجاه له خصوصية معينة، إذ كان «الغريب» دوماً هو العجيب أيضاً. ومن هنا بدأ الشوق والتلذذ بروية الشرق الغريب العجيب، بل الشوق إلى الأعجب والأغرب"<sup>(٢)</sup>.

كانت عبقرية السير وليام جونز William Jones<sup>(\*)</sup> (١٧٤٦-١٧٩٤) المفتاح الذي جلبَ الشعرَ العربي والفارسي إلى انتباه القراء البريطانيين؛ والرومانسيين على الخصوص. ففي عام ١٧٨٢ ترجم المعلقات السبع. ثم "نذر نفسه لمهمة ترجمة الليالي العربية من النسخة الفرنسية المأخوذة عن اللغة العربية، فكانت إنجازاته تلك غير عادية في الاستشراق، وتقدّم وسائل لفهم شعر بايرون وتضعه في منظور صحيح"<sup>(٣)</sup>؛؛ الأمر الذي

١ صورة الشرق في عيون الغرب. إبراهيم الحيدري. دار الساقى. ط١. ص٣٦. بيروت. ١٩٩٦.

٢ م.ن. ٤٠.

\* وليام جونز William Jones مستشرق وقانوني: بريطاني. ولد في لندن عام ١٧٤٦ فبرز وهو ما يزال تلميذاً في الشعر والأدب الكلاسيكي، تعلم العربية بنفسه. ثم دخل جامعة أكسفورد ١٧٦٤. وفي عام ١٧٦٦، وتخرج منها ١٧٧٢ وهو يتقن العربية والفارسية والتركية. وفي ١٧٨٤ أسس الجمعية الآسيوية التي كان غرضها تشجيع الدراسات الشرقية. وكان أول إنتاجه في الدراسات الشرقية كتابه: «نحو اللغة الفارسية» عام ١٧٧١. ومن أعماله ترجمته للمعلقات السبع، عام ١٧٨٢ بعنوان Moallakat. وأصدر في ١٧٧٤ كتاباً بعنوان «شروح على الشعر الآسيوي» والقسم الرئيسي من الكتاب يتناول علم عروض الشعر العربي، ثم البلاغة والبديع. توفي مبكراً عام ١٧٩٤ في كلكتا. انظر: موسوعة المستشرقين. عبد الرحمن بدوي، ١٩٩٢.

حمل المستشرق البريطاني هاملتون كُوب إلى القول: ( لولا كتاب ألف ليلة وليلة ما ظهر أدبٌ مثل روبنسون كروزو ورحلات جوليفر، ولولاه لكان الأدب الإنجليزي أفقر ممّا هو وأتعبس<sup>(١)</sup>).

"أصدر جونز عام ١٧٧٤ كتاباً بعنوان شروح على الشعر الآسيوي؛ في ستة كتب: وترجم قصائد عربية مماثلة لما يقابلها من أوزان الشعر اللاتيني، كما ترجم فقرات من الشاهنامه؛ بأسلوب أنبأة فرجيل، وقصيدتين لحافظ الشيرازي على قالب قصائد أنكريون الشاعر اليوناني. وكان لهذا الكتاب تأثير كبير أعطى الأوروبيين ولأول مرة نظرة عامة عن الشعر الإسلامي (العربي والفارسي والتركي)، كما زود القارئ الأوروبي بلحمة عن الشعر العربي ابتداء من المعلقات و «بانة سعاد»، مروراً بأبي نواس، وابن المعتز، والمعري وابن الفارض.

وبخصوص دور جونز في تأثير الشعر العربي على الشعراء الإنكليز " قام الفريد تنيسون شاعر الملك في انجلترا من سنة ١٨٥٠ إلى سنة ١٨٩٢ بدراسة مؤلفات جونز دراسة دقيقة وتناول في الأدب والفن كثير من قصائده موضوعاته الشرقية. وأبرز مثال على دينونته للأدب العربي قصيدته الغنائية المشهورة (إيوان لكسلي) الذي كتب عنها ابن الشاعر نفسه قائلاً: أتذكر أنّ والدي قال: إن ترجمة السير ولیم جونز النثرية للمعلقات ألهمته فكرة القصيدة؛ وليست القصيدة نفسها ذات وسط عربي خالص فحسب، بل إن وزنها أيضاً محاولةً لتقليد بحر الطويل الذي استعمله امرؤ القيس"<sup>(٢)</sup>.

وقد لخص فريدريك شليگل حماسة الحركة الرومانسية لإمكانيات الشرق الأدبية بقوله: "في الشرق تعثر على أرقى شكل للرومانسية، فهو النبع الذي يجب أن ننهل منه، والعواطف التي تسحرنا في الشعر الأسباني تبدو لنا بالمقارنة مع تلك العواطف جدّ هزيلة

١ الاستشراق الفرنسي والأدب العربي. د. احمد درويش. ص ٣٠. الهيئة المصرية للكتاب. القاهرة.

١٩٩٧.

٢ تأثير الأدب العربي على الأدب الإنكليزي. بقلم المستشرق البريطاني آرثر جون اربري. مجلة الأدب والفن. لندن. ١٩٤٣.

"(١). فالرومانسيون وجدوا في الشرق عالماً مختلفاً كل الاختلاف عن عالم الكلاسيكية، عالماً لا عقلانية تملؤه، بل تلونه حرية التخيل والحساسية والقدرية<sup>(٢)</sup>. كانت قراءة الليالي سبباً في تحول الشعراء إلى نوع خاص، لا يمكن فهمه بمعزل عن الجغرافيا والتاريخ الطبيعي. وأصبحت عنصراً تأسيسياً في الأيديولوجية الرومانسية، لما فيها من أساطير ميز بها الشعراء أنفسهم في المجتمع البريطاني، وأصبحت قابلية التفاعل مع الحكاية الشرقية علامةً يمكن للشعراء من خلالها أن يتعرفوا على بعضهم البعض بوصفهم شعراء حقيقيون<sup>(٣)</sup>. فالشرق النصوسي " وفر لهم خلفية ذات رؤى شاعرية يتحرك عليها أبطال رواياتهم وقصائدهم.

في قصيدتي الستور Alastor وثورة الإسلام The revolt of Islam ترى أبطال الشاعر شيلي Shelley يزورون الأطلال، ويرون بوادي النيل، ويجتازون فارس والجزيرة العربية، ويتسلقون جبال الهملايا، حتى يصلوا إلى أكثر الوديان عزلة في كشمير، وبذلك يبرز المحور الرئيسي الذي تدور حوله القصائد الرومانسية ألا وهو الترحال<sup>(٤)</sup>. وهذا هو السبب نفسه - فيما نرى - كان دافعا لتثقيف جهد الرحالة الأوروبيين إلى الشرق. وأولئك الرحالة كان لهم تواشج وصلات واسعة مع الرومانسيين؛ كتابا كانوا أم رسامين.

كان أحد المواضيع الأثيرة لدى الرومانسيين الإنكليز موضوع ( البلبل والوردة )، وأول من جاء به إلى الأدب الإنكليزي ( الليدي مونتاغيو) في مراسلاتها مع ( الكسندر بوب Alexander Pope)، وذكرت في إحدى رسائلها إليه عام ١٧١٧ أنّ البلبل غنى كأحلى ما يكون الغناء؛ ليصف حبّه للوردة. فالتقط بوب هذا النمط الرومانسي، وتابعه في

١ The Rise of Modern Mythology, Quoted in Burton, Feldman and Robert Richardson, (1972) p. 313.

٢ Guide through the Romantic Moment, Ernest Pp. 1 Bernbaum (New York, 1949)

٣ The Arabian Nights in Historical Context: Between East and West Edited BY Saree Makdisi and Felicity Nussbaum. Oxford University press. 215-216

The Lost Travellers: A Romantic Theme with Variations Bernard Blackstone (London, 1962) p. 26. 4



مغازلته لها، وراح يكتب إليها من منطلق صورة الشرق قائلًا: إنك ستصلين إلى أرض الغيرة، حيث النساء الكسيرات لا يجدن من يتحدثن إليه سوى الخصبين ... ويسترسل بوب في وصف مونتاغيو وهي توغل في الشرق:

إنهم يهمسون: إنك تسترخين على الأريكة، وصرت بارعة في لفّ العصابة الشرقية على رأسك، وتستحمين وتتعطرين. وأسمع كيف أمضيت ليلتك؛ حيث حلمت بجنية شرقية. وحين صحوت أصبح جسّدك الجميل متمتعًا بكامل حريته؛ ليمارس كل الفعال المثيرة التي خلق لأجلها<sup>(١)</sup>.

فهذه الأشعار بمثابة مرادة تغلّت بالغزل حاول فيها الكسندر بوب استلاب الشرق استخدامه للتعبير عن نوازه تجاه مونتاغيو وذلك بجعل النساء الشرقيات ينطقن بدلا عنه؛ تعبيرا عن نوازه هو.

إن أول تأثير عميق وواسع النطاق لليالي في الأدب الإنكليزي تم عن طريق بيكفورد<sup>(\*)</sup> في روايته الوثائق Vathic والتي كتبها في إيطاليا؛ مستلهما أحداثها من الليالي العربية.

وبحسب ما ترى رنا قباني في كتابها الثري أساطير أوربا عن الشرق فإن صورة الشرق: "خدمت أغراض ويليام بيكفورد الفنية؛ فروايتها الوثائق انبثقت من القصص الشرقي في القرن الثامن عشر، وجعل من الشرق إطارا أدبيا، منه استعار عوالمه الفنية، وحاكى أساليبه اللغوية، ولقد وقر الشرق امتدادات فسيحة ومزخرفة، ومنها شعريا.

The Alexander Pope Correspondence,

١

(Oxford, 1956) vol. I, p. 368

\* بيكفورد ولد في ٢٩ سبتمبر ١٧٦٠ في لندن. وفي سن العاشرة ورث ثروة كبيرة من والده وليام بيكفورد، الذي كان عمدة لندن لمرتين، فضلا عما ورثه من عقارات ومزارع السكر في جامايكا، التي عمل بها الأفارقة المستعبدين. وسمحت له الثروة بالناية بالفن والهندسة المعمارية، بالإضافة إلى الكتابة. وتم نفيه نفيًا اختياريًا لتهم تلبّست به بخصوص شذوذه الجنسي. سافر إلى إيطاليا عام ١٧٨٢ وهناك أصدر كتابًا عن: الأحلام، والاستيقاظ، ثم كتب في روايته الوثائق بالفرنسية أولاً.

\_Murray, Christopher John (2013). Routledge.

أنظر:

Encyclopedia of the Romantic Era, 1760–1850 ISBN 9781135455798

وبيكفورد أخذ الشرق – الأسطورة، وجعل منه أسطورةً أكبر، وقد كتب إلى السيدة (هيرفي Hervey): لا تظني يا أختي العزيزة، أنّ الشرقيين هم الذين يبهجونني، بل البلاد التي يقطنونها هي التي تستحوذ على إعجابي، إن غابات توابلهم، وحيواناتهم، وأنهارهم الكبيرة هي مصدر سعادتي. كان الشرق الأدبي هو الملجأ الذي جذبته فهرب إليه<sup>(١)</sup>.

وهناك معطيات مهمة نتجت عن تفاعل بيكفورد مع الليالي العربية في روايته الوثائق؛ "إلا أن التأثير الأكثر أهمية هو أن اهتمامه وقراءاته في ترجمات الليالي أتاحت له مزج الخيال بموهبة حسية في تخيل الصور الشرقية"<sup>(٢)</sup>. فضلا عن أن الكثير من الكتاب الأوربيين كانوا يقومون بإسقاط مشاعرهم المكبوتة على صورة الشرق. فعلى سبيل المثال فإن حكاية بيكفورد الشرقية (الوثائق Vathek) تحكي عن خليفة شاب غني شرير وفاسد، ومنغمس في ملذاته، ولم يكن يسمح لشيء أن يقف بينه وبين تحقيق رغباته الجنسية. لكن قصة الخليفة الشاب هي في الحقيقة قصة بيكفورد نفسه. لكن الأثر الأكبر في تأثير قصص بيكفورد يتمثل في تعليقات وشهادات معاصريه من الرومانسيين الكبار الرواد، فهي تصف ليس الأثر الذي تركه بيكفورد فيهم بل ما تركه الشرق في أشعارهم وأفكارهم وحتى مناهجهم الفكرية التي اختطوها.

ومن ذلك الأثر مواقف اثنين من معاصريه الأصغر سنا وهما بايرون Byron وتوماس مور Thomas moor. اللذان يدينان فيما كتبا للونمط الأدبي الذي في قصص بيكفورد. " ف بايرون وجد ضالته في رواية (الوثائق) لبيكفور، والتي ظل يحتفظ بها دون سائر كتبه التي أوصى بعرضها للبيع؛ قبل أن يغادر إلى اليونان عام، وبذل محاولات لمقابلة بيكفورد الذي رفض اللقاء به؛ فكتب قائلاً: ما جدوى المقابلة، فلو التقينا لرحنا نتحدث في وقت واحد، ولتكلفنا السرور، ولبدأت فيما بيننا المراسلات، وهي أفسى

١ أساطير أوروبا عن الشرق. م.ن. ص ٦٠.

٢ Experience, Fantasy, and Reality in William. Beckford's Vathek. Abdulhafeth Ali Khrisat. Damascus University Journal, Vol.27 No.3+4,2011. pp.190.

ما يمكن أن يتصوره المرء؛ لأنها ستكون مصطنعة. لكن طالما أستطيع من خلال أعماله التمتع بأفضل ما يمتاز به عقله، فماذا أطلب أكثر<sup>(١)</sup>.

كان بايرون قارئاً نهماً لأدب الرحلات إلى الشرق، "وقد كتب إلى صديقه توماس مور عام ١٨١٣ ينصحه بقراءة مؤلف (كاستلان Castellan) عن ( عادات وملابس العثمانيين ) الصادر عام (١٨١٢)؛ لاعتقاده بأنه سيزوده بالمادة اللازمة لتأليف قصيدة عن الشرق، وحثّه على كتابة القصيدة؛ لأنها ستلقى ترحيباً في الجو الأدبي السائد آنذاك: فلتكتب عن الشرق، إنه النهج الشعري الوحيد، فالشمال والجنوب والغرب استنفدت جميعها، ولم يبق أمامنا إلا هذا الشرق. أمّا القليل الذي فعلته أنا فليس سوى صوت أطلقته في البرية؛ يمهّد السبيلَ أمامك، وإذا كان قد أصاب بعض النجاح فإنه دليل على أنّ الناس أصبحوا ميالين نحو الشرق"<sup>(٢)</sup>.

وتعبير بايرون " صوت أطلقته في البراري" شبيه بما ورد في سفر أشعيا: « صَوْتُ صَارِخٍ فِي الْبَرِّيَّةِ: أَعِدُّوا طَرِيقَ الرَّبِّ ». يحمل في طياته سِمَةَ التبشير؛ ولكن ليس من منزع ديني؛ بل من خلال فكرة الخلاص الرومانسي الذي كان يعتقد به جلُّ الرومانسيين؛ فالرومانسية ليست مذهبا أدبيا فحسب - كما قد يرى الكثير من الناس - بقدر ما هي نزوع ثوري أدواته الشعر والكتابة الأدبية بعامة.

ولقد استفاد الشاعر مور من توجيه بايرون له فجنى ثروة كبيرة من روايته الشعرية (لاله روك Lalla Rookh) التي نشرها عام ١٨١٧. وتحتوي على الكثير من الوصف المشحون بالأخيلة والمبالغات؛ فضلا عما فيها من إضافات تصل إلى حد الكذب، مثل وصف المناظر على جانبي الطريق الذي تسير فيه (لاله روك) لمقابلة عريسها. مما حدا بالرحالة فيكتور جاكومونت إلى كشف مبالغاته قائلا: إن توماس مور كذاب. فأنا أسلك

The Life of William Beckford. John Walter Oliver. Oxford University ١

Press, 1932, p. 285- 287

Byron, Letters and Journals, edited by Leslic A Marchand (London, 1980, ٢

vol. II, p. 101

الطريق ذاتها التي قال إنّ لالهً روح مرّت بها؛ ولم تقع عيني على شجرة في تلك الطريق<sup>(١)</sup>.

ومثال ما كتبه مور مثال كلّ الأخيذة التي تعمل على تصنيع خيالي مبالغ عن الشرق؛ دون أن تلتفت إلى الأثر السلبي الذي تتركه أخيلتهم؛ ولا إلى الإساءات التي تتشكل في ذهن القارئ الأوربي. فهو عالمٌ يغصّ بنساء الفاتنات ذوات العيون السود الواسعة؛ تتفجر فيهن الرغبة، لكنهن واقعات في أسر الرجال. ذلك الشرق هو شرق السحر والجمال والطبيعة والشمس والجواري والولائم والحريير والمجوهرات والموسيقى والرقص والأشعار<sup>(٢)</sup> فحسب!.

إن الوصف والانبهار الذي نجده في أدبيات الغرب عن الشرق لا يحمل الكثير من البراءة بقدر ما يحمل الإثباع الغريزي؛ وهو وصف غنائي يختلط بمسحة العداء التقليدي للإسلام، فمور نفسه لم يفرّق بين الواقع والخيال، ولا بين التاريخ والأسطورة؛ المهم لديه أن يجمع - بغرض التسويق - بين الإثارة وبين مسحة العداء ودونية الشرق.

أمّا النموذج الرابع لهذا الانفعال والتأثر بالشرق فالشاعر ( كولريديج Coleridge) لاسيما في قصيدته (قبلة خان Khan Kubla)، التي كتبها عام ١٧٩٧ وشجّعها وساعده على كتابتها ونشرها الشاعر بايرون ذاته.

كان كولريديج يشبه بايرون في الوله بكتب الرحلات والإدمان على قراءتها؛ لاسيما تلك التي تصوّر الرحلات إلى الشرق. وهي التي زوّدت بلفئاتٍ شعرية، وبثروة من أساطيرٍ وجدها في سير الرحلات التي تمعّن في قراءتها، وأكسبته الكثير من الصور المدهشة. وقد تعلّق كولريديج بكتاب ألف ليلة وليلة، وهو طفل، وكتب رسالة إلى ( توماس بول

١ Victor Jacquemont, Letters from India, describing Journey during the years 1828-1831 (London, 1835, 2 vols) vol. I, p. 360.

Thomas Moore,

٢

Poetical Works (New York, 1854) p. 424

يقول: ( Thomas Poole ) عام ١٧٩٧ يصف فيها مشاعر الرغبة والخوف التي كانت تلازمه،

" عندما أرنو إلى النافذة التي وُضِعَ عليها الكتاب، وقد غمرته أشعة الشمس أخذه وأجلس مستنداً إلى الجدار وأنعم بقراءته... وأشار أيضاً إلى معارضة والده لقصص ألف ليلة وليلة، وكيف كان يعتقد بوجوب إحراقها لأنها تلهبُ عواطفَ الأطفال. ولا شك في أنَّ رأي والده كان له سبب، لأن كتابات كوليريدج ظلت تحمل الطابع المثير والملتهب لتلك القصص"<sup>(١)</sup>.

" كانت العلاقة بين البنية السردية والرسالة الأخلاقية التي تثير عناية كوليريدج في الحكايات الشرقية ليس فقط التي استذكرها منذ الطفولة، بل تلك التي قرأها وهو شخص بالغ. لكن الغريب لديه انه حاول رد الليالي إلى أصول يونانية، لأن إسناد الصفات المعنوية الثابتة إلى العوامل الخارقة للطبيعة تكتظ بها الأساطير اليونانية، لكن الجان في القصص الشرقية ليست مثل آلهة اليونان القديمة؛ يمثلون إرادتهم بل كانوا تحت سيطرة الله<sup>(٢)</sup>. وهذه في الحقيقة مسألة تتكرر في الذهن الغربي الذي على الرغم من تأثره بالشرق؛ إلا انه يحاول جاهداً ردّ الأصول إلى مصادر أخرى؛ يعد نفسه امتداداً لها، وهذا ليس بسبب مؤثرات الجغرافية والمعتقد فحسب؛ بل لأنّ الغيرية وتجاهل الشرق يشتغلان بكل قواهما في الذهن الغربي.

وبالمحصلة كانت أدب الشرق يشكّل قلماً مستداماً في ذهن الأدباء الإنكليز؛ والغرائبية التي فيه يثير سحراً مريكاً لهم؛ بسبب مغايرة السرد والخيال والإثارة لِمَا دأبوا عليه من أساليب وموضوعات. وهم في كل الأحوال يعبرون عن ذلك القلق بنوع من الانبهار يستحق التقصي والتحليل.

Coleridge, Collected Letters, edited by E. Griggs (Oxford,

١

1956, 2 vols) vol. I, p. 347.

The Arabian Nights in

٢ م ن

كان ووردزورث كثيرَ التعلُّقِ بذلك الإرثِ السردِيِ الخَظيرِ، وكان يقول: إنه " الكنز النفيس الذي امتلكه طويلاً؛ ذلك الكتاب الصغير الأصفر المجلد بقماش القنب؛ ذلك المختصر الضئيل من الحكايات العربية.

أما كوليرج فلا يخفي توقه إلى حكايات الخيال هذه، وكان يقول: أعطني ليالي التسلية العربية والتي كنت أرقبها حتى تبلغها الشمس التي كانت تشع على خزانة الكتب، وعندما تسطع عليها كاملة، كانت تعطيني الشجاعة لكي أسحبها من الرف. وكانت الليالي تقترن في ذهن كوليرج بالغريب والمرعب، ولم تكن لديه الجرأة في شبابه على التعامل مع حكاياتها في الليل الذي يزيد من رعب قصصها"<sup>(١)</sup>.

والواقع فهذه عينات من كبار أدباء إنكلترا تبين مدى تأثرهم وانفعالهم بالشرق وبأدب الشرق وغيرهم كثير اكبر من أن نذكر أمثل لهم في هذا المجال.

أما في ألمانيا فمذ منتصف القرن السابع عشر كانت أكثر الدول الأوروبية تخلفاً في المجال الأدبي، إذ تمزقت سياسياً واقتصادياً، وكادت أن تكون في القرن الثامن عشر أشبه بأرض بور؛ لولا أن بدأت حقبة جديدة منذ عام ١٧٣٠ مع نشوء النزاع بين العقائدية العقائدية والنقاد السويسريين، الذين أدركوا أن الشعر لا يمكن أن يتم وفقاً لوصفة تشبه كعكة.

وفي العام ١٧٤٠ نشر بودمر ( الخطاب المتعلق بالعنصر العجيب في الشعر )، والذي يشير عنوانه إلى التقدم نحو مفهوم أكثر فائدة للفن، ودعا إلى أن يقوم الكتاب الألمان بوضع نموذج لأنفسهم من النتاجات الأكثر حرية في اللغة الإنجليزية، التي كانت روحها أقرب إليهم.

لكن التحول الكبير في الأدب الألماني بدأ مع ليسينغ<sup>(\*)</sup> فهو أول من حول نظره نحو إنكلترا؛ وكانت مكانته في ألمانيا بالأهمية ذاتها التي تمتع بها يونك في إنكلترا؛ لأنه

١ ألف ليلة وليلة في نظرية الأدب الإنكليزي. د. محسن الموسوي. ص ٤٢. مركز الإنماء القومي.

بيروت.

\* غوتهولد إفرايم ليسينغ Gotthold Ephraim Lessing: كاتب، وفيلسوف، ومسرحي، وناقد فني ألماني ( 1781-1729 ) وأحد أهم ممثلي عصر التنوير، مسرحياته وكتاباته النظرية أثرت بصورة كبيرة على تطور الأدب الألماني.

عرض قضيةً جذابةً لإعادة التوجيه الحاسم؛ ليس من فرنسا إلى إنكلترا فحسب، ولكن أيضًا من التقليد إلى الابتكار، ممثلًا بشكسبير؛ بوصفه العبقرية العليا، لذلك وصل الزخم الحيوي لألمانيا من إنكلترا.

وفي المرحلة الثانية، بين حوالي ١٧٧٠ و ١٧٩٠ تمَّ عكسُ الموقف فالتجديد أتى من فرنسا إلى ألمانيا؛ التي كانت متعطشةً لبدايةٍ جديدةٍ بعد فترةٍ طويلةٍ من القصور الذاتي<sup>(١)</sup>. ونظرًا للبعد الإيديولوجي الذي امتازت به الرومانسية - بوصفها نزعة عابرة للمفهوم القومي - فقد كان لها أثر في حصول تغيرات كبرى في الثقافة الأوربية؛ وصلت حدَّ النزوع الثوري تجاه الكثير من مظاهر الحياة والمفاهيم. " وبهذا المعنى يمكن عدُّ الرومانسية ظاهرةً لا يمكن تقديرها إلا من خلال دراسةٍ مقارنةٍ؛ فقد كان الكثير من الرومانسيين مدركين تمامًا ما هو فوق الوطني للحركة؛ فالشقيقان شليغل يعترزان بمفهوم الأدب الرومانسي بوصفه جزء من سعيهما إلى شعر عالمي. وربما شجعت هذه النزعة الرومانسيين النقاد على البحث عن القواسم المشتركة للحركات الرومانسية، وإلى المبالغة في التشابه بين أدبيات مختلف البلدان"<sup>(٢)</sup>، وهذا ما نجده لدى الأديب الألماني غوته ( ١٨٣٢ - ١٧٩٩ ) بوضوح؛ لاسيما في نزعته لتحقيق فكرة الأدب العالمي Universal Literature.

استلهم غوته الحركة الرومانسية الوليدة في سبعينيات القرن الثامن عشر، ولم يحدث أن كان داعما صريحا لحركة الهوس بالهند، بل حرص في الحقيقة على الاحتفاظ بمسافة فاصلة بينه وبين الحركة الرومانسية. ولكن نظرا لكونه رحب الصدر في عواطفه ومشاركاته الوجدانية، فقد أبدى اهتماما كبيرا بالأفكار الوافدة من الشرق العربي والإسلامي.

" أراد غوته بواسطة الروح أن ينفذ حتى الأصل الأول للأجناس البشرية؛ من خلال ما يسعى إليه من اتحادٍ مع الشاعر المعروف حافظ شيرازي، يقول غوته:

١ Romanticism in Historical Perspective Lilian R. Furst Comparative Literature Studies, Vol. 5, No. 2 (Jun., 1968), pp. 120-121.

أنا أشبهك تماما، أنا الذي حُفرت في روعي الصورة الرائعة لكتبتنا المقدسة.  
فلتكن المتع والمشاق مشتركة بيننا، نحن الأخوة التوأم. أحب وأشرب  
مثلك سيكون كبريائي وتكون حياتي ...  
يا حافظ إنّ مضاهاتك ضرب من الجنون؛  
اعذرنى يا معلمي!.

إن هذا الجمع مع حافظ، هو بطبيعة الحال إطرأ لغوته، بيد أنه لا يحتاج مطلقا إلى هذا التكريس في ذلك الوقت الذي كتب فيه الديوان (١٨١٤ - ١٨١٩)، وان هذا الأمر لا يعدو أن يكون نوعا من الكلاسيكية المهددة، والتي ذهب يبحث عنها في شرق الزمن الماضي. إنها نظرة يخشى فقدانها في الغرب؛ إثر التحجيم الذي فرضته الوضعانية على العلم والتصور الساذج للطبيعة<sup>(١)</sup>.

والواقع فأن إعجاب كوتيه بالشرق الإسلامي أكبر بكثير مما يذهب إليه جي جي كلارك؛ عبر إحياءاته: بأن تواصل غوته مع الشرق أتى من إعجابه بالتراث الهندي<sup>(٢)</sup>، بينما تأثره بالشرق العربي والفارسي له الأثر الأكبر، وعمله: **الديوان الشرقي للمؤلف الغربي** شاهد على ذلك.

وهو مجموعة من القصائد استلهمها من الشاعر حافظ الشيرازي<sup>(٣)</sup>؛ والديوان كتب بين ١٨١٤ و١٨١٩، وكان آخر أعماله الشعرية. حاول فيه المزج بين الثقافة الغربية والشرقية. فضلا عن عنايته بالشعر العربي الجاهلي؛ لاسيما الملحقات، معتمدا على ترجمة وليم جونز<sup>(٤)</sup>. وستبقى ترجمة وليم جونز إلى مدى طويل الملهم الأول للشعر الجاهلي لاسيما الملحقات.

١ الشرق الخيالي. ورؤية الاخر. تيري هنتش. د.د. مي عبد الكريم. ص. ٢١٩. مؤسسة المدى. ٢٠٠٦.

٢ التتوير الآتي من الشرق. م.ن. ص. ١٠٦.

٣ عصور الأدب الألماني (تحولات الواقع ومسارات التجديد)، تأليف 'باربارا باومان'، و'بريجيتا أويرله'، منشورات عالم المعرفة، فبراير ٢٠٠٢، العدد ٢٧٨، ص ١٨٢.

٤ غوته والعالم العربي، كاتارينا موزمين، ، غوته والعالم العربي، كاتارينا موزمين، ص ٤٦. ت عدنان عباس، منشورات عالم المعرفة، العدد ١٩٤، ١٩٩٥.



لكن - وكدأب الغربيين على الدوام - يحاول أكثرهم إرجاع أي وافد شرقي إلى اليونانية أو إلى أصول هندية أو فارسية أو كونفوشية، ومنهم من يحاول إقصاء الشرق العربي وإخراسه.

ويصل الحال بأحد النقاد إلى حدّ الزعم بأن الرومانسيين ابتدعوا هندوسية من نسج خيالهم، ليؤكدوا بها معتقداتهم، وأن الهندوسية المنبتقة عن جهودهم تشايع البروتستنتية المتحررة من الجمود العقائدي، وخير مثال على ذلك محاولة شوينهاور مطابقة بعض أفكاره المحورية مع المفاهيم الهندية؛ من مثل مطابقة الإرادة مع براهما. وكذلك إعلاء شليغل من قدر الهند باعتبارها نبع الحكمة التي على أوروبا أن تنتهل منها.

لكن وعلى الرغم من هذا فمن العسير أن تُحجب مشاعر الإعجاب بمحاولات شوينهاور والرومانسيين من أجل دمج هذه الأفكار البعيدة والأجنبية ضمن أفق التفكير الغربي ... بيد أن فهم شوينهاور الخاص بالفلسفة الهندية مهما بدا قاصرا فيعدّ تمثيلا بارزا للتطلع نحو استخدام الفكر الشرقي بغية إحداث تجديد أساسي ومراجعة للتراث الفكري الغربي<sup>(١)</sup>.

ومن جانب آخر هناك تيار آخر أبدى مُمانعة شديدة للشرق باستخدام فلسفة التاريخ التي من شأنها إعلاء النموذج الغربي على حساب الشرق، هذه الممانعة تحمل في طياتها نزعة عرقية مندمجة بأصول لاهوتية؛ لكن بخطاب فلسفي مموّه. وهذا ما نجد نموذجه في مجمل فلسفة التاريخ لدى هيجل.

ويبدو أنّ الثقة التي استشعرها هيجل في تصنيفه لثقافات آسيا - تحت مقولات تضمّنّها مذهبه - يعكس الوضع التاريخي لأوروبا خلال تلك الفترة؛ باعتبارها القوة العالمية البازغة، وأدى ذلك إلى أنّ كثيرا من النقاد عمدوا إلى رفض أفكاره في هذا المجال باعتبارها شديدة التجريد، وغارقة في التأمل النظري، وتفتقر إلى حساسية تأويلية تجاه الثقافة الأجنبية. وذهبوا إلى أنّ أفقه الأوروبي لا يندمج كثيرا مع الأفق الشرقي، وإن هذا العائق هو الذي حال دون توقّف استجابة مواتية إزاء نظريته<sup>(٢)</sup>.

١ التتوير الآتي من الشرق. م.ن. ص. ١١٦.

٢ م.ن. ١١١.

ونلمس هذا بوضوح في فحوى رؤيته لحركة التاريخ؛ والتي يراها تسير في اتجاه حتمي لا سبيل إلى الرجوع عنه، وأنه اتجاه يمضي في صرامة من الشرق إلى الغرب، ولم يشأ أن يجدد الماضي مثلما فعل الرومانسيون، ولكنه على العكس رأى أن حضارات الشرق تشغل مرحلة باكرة في مسيرة تطور الروح الإنساني. وأن التاريخ العالمي في جوهره تاريخ تطور الوعي بالحرية فيما يخص الروح، والتقدم على طريق الحرية يتجلى في حركة تاريخية للروح التي بلغت ذروتها في صورة الحضارة المسيحية الحديثة لأوروبا. وطبيعي أن مثل هذه النظرة أجازت للمستشرقين الأوروبيين أن ينهضوا بدورهم ويفهموا الشرق في ضوء الاستعلاء الأوروبي. وتقضي هذه النظرة إلى أن الغرب ينهض بمهمة يعجز الشرق عن أدائها لنفسه<sup>(١)</sup>.

وثمة حقيقة مفادها أن هيجل التزم نظرة نقدية ثابتة إزاء معاصريه. من مثل فريديتش شليكل، "الذي قاده افتتانه بالهند - حسب رأي هيجل - إلى خيانة الحاضر وتشويه التاريخ. ولكن وعلى الرغم من هذا اعتقد هيجل بأن فهم الشرق له فوائده، وأنه يتجاوز كثيرا حدود الاهتمام بدراسة الآثار؛ إذ إنه يزودنا بالمادة اللازمة لصوغ تاريخ كوكبي شامل للثقافة البشرية، وهو ما مكنه من وضع نموذج تاريخي لتطور الروح البشري"<sup>(٢)</sup>. إذن فانتشار الرومانسية في ألمانيا لاقى صداً من فكر جديد لا يتعلق كثيرا بنزوع ديني؛ بقدر تعلقه بنمطية فلسفية حاولت إعادة قراءة التاريخ أو كتابته على أسس مغايرة للنمطية الدينية؛ لكن هذه النمطية لم تستطع التخلي بالجملة عن رواسب دينية غلفتها بغلاف فلسفي.

لكن وفي جانب آخر نجد تياراً مضاداً لذلك النزوع في كتابات نيتشه الذي شن هجومه العنيف على العقلانية الغربية وعلى التزمت الديني كليهما. أو بصورة أكثر وضوحاً حاول إعلاء النموذج الديونيسيوسي على النموذج الأبولوني.

وفي كتابه مولد المأساة الإغريقية تفصيل موسّع لهذه النزعة؛ مع العلم أنّ أصول ديونيسيوس الشرقية أضحّت لدى العلماء أمراً محسوماً. وكما مرّ سابقاً فالعلماء رجحوا أنّ

١ م.ن. ١١٢.

٢ م.ن.

أصله غير يوناني. وأنه من تراقيا جنوب الأناضول. وأسطورته كانت السبب في نشوء النمط الشعري الدثرامي، وإليها يعزو إليها نيتشيه ولادة عصر المأساة الإغريقية. وأسطورته كانت السبب في نشوء الموسيقى والأغاني القديمة لذلك يعزو إليها نيتشيه ولادة عصر المأساة الإغريقية<sup>(١)</sup>.

وقد اختار نيتشيه في حمل أفكاره تلك تقمص شخصية (شرقية) هو زرادشت، فكتب كتابه **هكذا تكلم زرادشت**. وهو كتاب فلسفي شعري ذو نزعة رومانسية؛ على الرغم مما يحتويه من أخيلة غارقة في الرمز. والكتاب - شأنه شأن كتابه مولد التراجيديا - حملة مضادة للنموذج الأبولوني؛ النموذج العقلي الذي يقيد الفن ويعيد الجمال والفضيلة كليهما إلى العقل؛ لا إلى الحدس والشعور الحر. وفي مولد التراجيديا قرّن نيتشيه بين يوربيدس وبين سقراط بوصفهما المسؤولين عن موت عن موت الروح.

إن يوربيدس<sup>(\*)</sup> وهو يضع الخطة كـ مُفكر؛ من نمط سقراط ويطبقها كممثل شغوف، تأتي تراجيديته رابطة الجأش ومتقدة، أي تكون باردة جدا وملتهبة. لكنها تراجيديا لا يمكنها بلوغ الأثر الذي تحقّقه الملحمة الأبولونية، لكنها تحدث قطيعة مع الاتجاه الديونيسيوسي... وما دمنا عرفنا أنّ يوربيدس فشل في مساعيه لبناء تراجيديا على أساس الروح الأبولونية، وأن الغايات غير الديونيسيوسية قد ابتعدت في اتجاه نزعة طبيعية لا فنية، فقد صار باستطاعتنا أن نناقش ظاهرة السقراطية الجمالية، التي تقوم أساساً على القانون التالي:

1. م.ن. *Classic mythology. Myth Summary Chapter 13: Dionysus*,

\* يوربيدس واحد من ثلاثة مسرحيين كبار ممن نجى قسم من أعمالهم ووصلت إلينا. اسخيلوس وسوفوكليس. من رواد المأسى الكلاسيكية في أثينا. ويمثل حجر الزاوية في البناء الأدبي الكلاسيكي. انظر:

In The Cambridge History of Classical Literature I: Greek Literature, B.

Knox, 'Euripides'. Cambridge University Press (1985), p. 316

" لكي يكون الشيء جميلا يجب أن يكون مفهوما. " وهو قانون يتوازي مع مقولة سقراط الشهيرة بأن "الفضيلة ملك المعرفة فقط"<sup>(١)</sup>. وهذا تحدّد صاحب للأنساق المدرسية التي قامت عليها نظرية الأدب والنقد الأدبي كليهما، وهي دعوة صريحة إلى العودة إلى الروح الدينسيوسية، إلى الروح الرومانسية المشبعة بالأثر الشرقي.

## ***The Eastern Roots of Western Romanticism***

**Asst.Prof.Dr. Faris Aziz Al Mudaris**

### **Abstract**

This research reveal the Eastern roots of Western romanticism, by analyzing the different historic contexts, and the influence of ancient eastern civilizations had on Greek civilization.

In ancient times the Greek civilization did not include the European world as it is recognized today.

The Greek civilization was an extension of the interactive of many civilizations, the most important of which were the Eastern civilizations in Egypt, Iraq and Persia. The Greece's legacy carried with it the principles of romantic images in ancient Eastern art and literature.

In the subsequent, the research reveals the influence of East civilization on the European, from the Andalusian period onwards.

The research contains a definition of romance, as an intellectual tendency rather than a literary one, so it has influenced the emergence of mager changes in the world.

This paper shows that the early pioneers of European were influenced by in Eastern literature, especially Arabic literature, through the book of the Arabian Nights and poetry of Andalusians, and other confiscation.

Finally we present examples of texts selected from different European literature; influenced by the literature of the East; as well as testimonies of critics, writers and travelers.

---

١ مولد التراجميديا. فريدريك نيتشيه. ١٦٤ - ١٦٥. ت شاهر حسن عبيد. دار الحوار. اللاذقية. ط١.